الفصل الأول

مدخل إلى العقيدة والإيمان

المبحث الأول : مفهوم العقيدة.

المبحث الثاني: حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة.

المبحث الثالث: مزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها.

المبحث الرابع: مقتضيات العقيدة الصحيحة.

المبحث الخامس: المفهوم الشامل للإيمان.

المبحث السادس: حقيقة الإيمان.

المبحث السابع: علاقة الإيمان بالعمل .

المبحث الثامن: ثمرات الإيمان الصحيح.

المبحث الأول
مفهوم العقيدة

ما العقيدة ؟

العقيدة هى: مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل، والسمع، والفطرة، ويعقد عليها الإنسان قلبه، يثنى عليها صدره جازمًا بصحتها، قاطعًا بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصبح أو يكون أبدًا.

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه، وعلمه به، وقدرته عليه، ولقائه به، بعد موته ونهاية حياته، ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعمله غير الاضطرارى، وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه، وتتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة.

وكاعتقاده بغنى ربه تعالى عنه، وافتقاره هو إليه، وفى كل شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها، فبالله تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده، إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف، بحبه يحب، وببغضه يبغض.

وهو مولاه الذى لا مولى له غيره، ومعبوده الذى لا معبود له سواه، لا يرى ربوبية غيره، ولا يعتقد ألوهية سواه.

العقيدة الصحيحة:

تعتبر عقيدة التوحيد الصافية الغالية من أهم مقومات الوحدة بين المسلمين، فهى عقيدة ثائرة، معجزة، متدفقة بالقوة والحياة، مقلبة للأوضاع، مدمرة للآلهة الباطلة، لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

ولقد كان الإنسان قبل الإسلام يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٤٢]. ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٦٦] .

كان العرب قبائل متناثرة لا تجتمع على شيء على الرغم من وجود كل مقومات التجمع: من وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الثقافة، ووحدة التاريخ، ووحدة التصورات، ووحدة التطلعات.

من هنالك انتشلهم الإسلام، لا ليكونوا تجمعًا قوميًا، ولا ليكونوا تجمعا وطنيا تحت قيادة زعيم منهم، ليكونوا منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود، ولكن لينشئ منهم أمة العقيدة التى استحقت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والذى يلحظ النقلة الهائلة التى انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، لابد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل فى فترة من عمر الزمن كأنها لحظات.

إن العقيدة الإسلامية هى أغلى ما يمكن أن تقوم عليه وحدة المسلمين، فهى الوشيجة الحقيقية التى تقوم عليها الأمة الحقيقية.. الأمة الخيرة.. ثم تنضوى تحتها كل العلاقات الأخرى، علاقات الأرض، واللغة، والجنس، وقرابة الدم، فتكون هذه روافد إضافية إذا وجدت ولكنها لا تكون هى التى تُكون الأمة – ولو اجتمعت كلها – فى غياب العقيدة، بينما تكون العقيدة وحدها – ولو غابت الروابط الأخرى كلها – هى الرباط الذى تتكون حوله أمة تتآخى بأخوة العقيدة، وترتبط برباط الإيمان، فتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف: ٤]. والمؤمنون بهذه العقيدة كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

بالحمى والسهر، يقول الرسول الكريم ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1] .

وروى النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « إنما مثل المؤمنين فى تواصلهم وتراحمهم وما جعل الله فيهم من البركة، كمثل الجسد إذا وجع تداعى سائر جسده بالسهر والحمى»[2] .

تلك هى الوشيجة التى نبه القرآن فى أكثر من موضع على أنها هى العقيدة، وهى المعول عليها، والتى تفصم الروابط الأخرى وتبقى هى لا تنفصم . فقد جاء فى قصة نوح عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام قوله جل شأنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

ولقد دعا نوح ابنه – وكان فى معزل – ليركب فى السفينة الناجية، فأبى!! فأدركه الطوفان. فلما قضى الأمر واستوت السفينة على الأرض وقد نجا من نجا، وهلك من هلك، ملأت الحسرة قلب نوح على ولده الهالك، وراح يسأل ربه كيف غرق وهو من أهله، وقد وعده الله أن ينجو أهله، ووعد الله حق لا ريب فيه؟!.

هنا ينبه الله سبحانه وتعالى أن الوشيجة الحقيقية ليست وشيجة الدم.. إنما هى وشيجة العقيدة.. ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ قد انفصمت وشيجة العقيدة؛ حيث أَبَىَ الابن أن يؤمن، فانفصمت لها كل وشيجة أخرى، ولم يعد ابن نوح من أهله، مع أنه ابنه كما يؤكد القرآن الكريم باللفظ الصريح ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾.

---

(١) متفق عليه، انظر صحيح البخارى، ج ١٢، ص ٤٦.
(٢) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٢/ ٦٢، ٧٤).

إذ العبرة بأهلية الدين لا بأهلية القرابة. (والغير) فى قوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ عائد على ابن نوح عليه السلام أى: إنه ذو عمل غير صالح، أو إنه لما انغمس فى المعاصى كان كأنه عمل غير صالح، ومن باب وصف الأشخاص بالمصادر مبالغة كما يقال: زيد عدل[1].

وفى قصة إبراهيم – عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام – جاء قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وجاء خطاب الله تعالى للمؤمنين كافة إلى يوم القيامة ناهيًا لهم من أن يركنوا إلى قرابة الدم، ويتركوا محبة الله ورسوله، والجهاد فى سبيله، وينذر الذين يخلون بالموازين الربانية بالعذاب الأليم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣- ٢٤].

أهمية علم العقائد:

إن هذا العلم هو أهم العلوم على الإطلاق، بالنسبة للفرد المسلم؛ لأنه علم العقائد الإسلامية. والعقائد فى الإسلام هى الأصول التى تبنى عليها فروعه، والأسس التى يقوم عليها بنيانه، والحصون التى لابد منها لحماية عقيدة المسلم من أخطار الشك، وأعاصير التضليل والتزييف.

وكثيرًا ما سمعنا ورأينا أنواعًا من الانحرافات فى الفكر والقول والسلوك لم يكن لها من سبب إلا البعد عن فهم أصول هذا الدين، وركائزه التى قام عليها،

(١) تفسير البيضاوى، ج٢، ص ٣١٠.

والتى لابد من الإيمان بها، ليفهم بها الدين، وليجاب بها عن جميع التساؤلات التى لم يكن لها سبب سوى الجهل بقضايا الإيمان ومسائله.

وقضايا الإيمان هذه هى التى جاء بها الرسل، على مدى التاريخ الإنسانى كمبدأ لابد منه حتى تبنى عليه جميع قضايا الدين بعد ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن المعلوم أن جميع الأعمال الصالحة التى يعلمها أى إنسان ابتغاء وجه الله تعالى موقوف قبولها عند الله على صحة العقيدة التى يتكلم عنها هذا العلم؛ لأن الانحراف عن العقيدة انحراف عن الإيمان، والانحراف عن الإيمان هو الكفر، والله تعالى لا يقبل من كافرٍ عملا[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ويكفى لإدراك الأهمية الكبرى لهذا العلم أن قضاياه كلها هى القضايا الفاصلة فى الحكم على الإنسان بالإيمان أو الكفر والفسوق، وبالنجاة أو الهلاك، وبالسعادة أو الشقاء.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾ [البينة: ٦-٨].

---

(١) حسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية، القاهرة، دار التراث العربى، ١٤٠٦ هـ، ص ٢٠.

لذلك قال جميع علماء الإسلام: إن هذا العلم مفروض تعليمه وتعلمه على الرجل والمرأة، وواجب على كل مسئول من والد ووالدة ومعلم ووصى ومرب وأمثالهم أن يهتموا بتنشئة الأطفال على فهم مبادئه، وعلى أن يعطى كل حسب قدرته العقلية والنفسية، فيتدرج فى تعليمه كما يتدرج فى تعليم أى علم ذى أهمية وشأن.

موضوعات هذا العلم:

الموضوعات التى يبحث هذا العلم فيها، هى:

١- ذات الله تعالى: لمعرفة ما يجب فى حق الله، وما يستحيل، وما يجوز.

٢- ذوات الرسل عليهم الصلاة والسلام: لمعرفة ما يجب فى حقهم، وما يستحيل، وما يجوز.

٣- الأمور الغيبية: وهى التى لا يمكن الوصول إليها لمعرفتها والإيمان بها إلا عن طريق كتاب الله تعالى، أو حديث رسوله ﷺ وذلك مثل : كتب الله تعالى، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار .. إلخ.

وتحديد موضوعات العقيدة جاء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وقال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣-٥].

وفى حديث طويل سأل جبريل النبى ﷺ عدة أسئلة تعليمية وكان منها قوله: فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال :« أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم

الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1]، وبذلك تدرك أن أركان الإيمان هى : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره .

الواجب والمستحيل والجائز:

هناك عدة كلمات مهمة فى هذا الباب منها: الواجب – المستحيل – الجائز – والمقصود بها الواجب العقلى، والمستحيل العقلى، والجائز العقلى، وإليك تحديد معانيها؛ ليتضح لك طريق البحث وإثبات قضايا هذا العلم.

فالواجب العقلى: هو الأمر الثابت الذى لا يتصور العقل انتفاءه، وهو قسمان:

١ – ضرورى بديهى يدركه كل إنسان بعد النظر والتفكير، مثل إثبات قِدَمِ الإله، وبقائه، ووحدانيته وجميع صفاته الكمالية.

٢ – نظرى، يعنى أن يصل الإنسان إليه بعد النظر والتفكير، وهو الإيمان والتصديق بما تقدم، دون شك أو تردد فى قبول ذلك.

والمستحيل العقلى: هو الأمر الذى لا يتصور العقل وجوده، وهو قسمان كالواجب:

١ – ضرورى بديهى: وهو ما يدركه العقل بدون نظر وبحث مثل كون الأب أصغر من ابنه، وكون الواحد عددًا من الاثنين.

٢ – نظرى، وهو ما يصل العقل إليه بعد نظر واستدلال، مثل : استحالة أن يكون الله متعددًا، وأن يكون مخلوقا، وأن يموت .. إلخ.

والجائز ويسمى الممكن: هو فى نظر العقل ما يقبل الثبوت والانتفاء والوجود والعدم لذاته، وذلك مثل حياة الإنسان وموته وصحته ومرضه، وغناه وفقره .. إلخ.

ويلاحظ أننا نسبنا الوجود والاستحالة والجواز إلى العقل، فالعقل الإنسانى إذًا هو الذى يبحث، وهو الذى يحكم، وعلى أساس حكمه تبنى النتائج، فلا مجال هنا فى إثبات العقيدة للتقليد، ولا للوراثة، ولا للأهواء والشهوات. إنما المجال مجال

---

(١) رواه الخمسة إلا البخارى.

العقل السليم الحر غير المغلول وغير المكبوت، وسوف نجد فى مسيرتنا مع هذا العلم أننا نستدل بآيات من كتاب الله تعالى، فلا يقال ولا يحق لأحد أن يقول: كيف تستدلون بكتاب الله تعالى على قضايا قررتم أن العقل هو الحكم فيها؟

لأننا نقول: إننا نستدل بكتاب الله تعالى فيما يعرضه علينا من آيات تحرك عقولنا وتفتح لها مجالات البحث والمناقشة والمحاورة، ثم نترك الحكم على النتائج لعقولنا، فكتاب الله لنا هو النور الذى يشع، فندرك به السبيل ونعرف به جوانب الطريق ومعالمه، وهو الهدى للضالين، والفيصل فى قضايا العالمين. وما تخبط المتخبطون فى أمور الدين إلا بسبب اعتمادهم على العقل وحده وبعدهم عن كتاب الله وهدى رسوله ﷺ تقليدًا للفلاسفة وأشياعهم من متكلمى المسلمين.

ويكفيك دليلا على أن كتاب الله يسلك هذا السبيل بالنسبة للنائين عن قول الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

من الذى يجب عليه معرفة الله، ومعرفة شرعه، ومعرفة العقيدة السليمة؟

تجب هذه المعرفة على كل مكلف:

والمكلف هو البالغ العاقل، سليم الحواس، الذى بلغته الدعوة، فالمعرفة : لا تجب على الصبى، ولكن يجب على وليه تعليمه العقيدة ومبادئ الدين، حسب قوة فهمه، لينشأ مسلمًا واعيًا سليم العقيدة، ولتحفظه العقيدة من الزيغ إذا بلغ.

ولا تجب المعرفة على المجنون، ولا على فاقد السمع والبصر معا؛ لأنه لا طريق لمعرفته، فإن وجدت طريقة للمعرفة وجبت عليه، كما لا تجب المعرفة على من مات قبل بعثة الرسول ﷺ .. يعنى مات فى فترة ليس فيها رسول مبعوث أو يوجد رسول ولكنه مرسل إلى قوم دون آخرين، فالمرسل إليهم هم المكلفون المسئولون، إذا بلغتهم دعوة رسولهم. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥].

حدود المعرفة السليمة:

المعرفة السليمة التى يصير الإنسان بها مؤمنًا إيمانًا صحيحًا هى الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل.

فالمعرفة غير الجازمة معرفة مرفوضة، وصاحبها لا يعتبر مؤمنًا؛ لأن العقيدة مبنية على الجزم: فلا يعتبر مؤمنا من كان واهمًا أو شاكًا أو ظانًا. ولا يعتبر مؤمنًا من جزم بعقيدة مخالفة للواقع، كاعتقاد قدم العالم، أو أن الله متعدد، أو أن القيامة واليوم الآخر لن يوجدا مستقبلاً.

ويعتبر مؤمنًا عاصيًا من عرف الله تعالى واعتقد وجوده وصفاته ولكنه لا يعرف دليلا على وجود الله، مع استطاعته النظر ومعرفة الدليل، ولو إجمالاً كأن نقول له : ما الدليل على وجود الله؟ فيقول : الدليل على ذلك وجود هذا العالم مثلاً.

فالدليل الإجمالى فرض عين على جميع المكلفين. أما الدليل التفصيلى فإنه فرض على بعضهم فقط، لوجود طائفة متخصصة تستطيع الدفاع عن الدين وعن العقيدة، فهو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن باقى الأمة.

وبعض العلماء يرى أن إيمان المقلد .. « وهو المؤمن بغير دليل إجمالى ولا تفصيلى» إيمان مقبول وصحيح إذا حصل منه الجزم بالعقيدة، بحيث لا يتردد فيها ولا يتزحزح عنها ولو تردد وتزحزح الإنسان الذى اعتمد عليه المقلد فى عقيدته وتقليده. ودليلهم على ذلك أن النبى ﷺ كان يقبل إيمان من يؤمن بدون سؤاله عن الدليل. وذلك ثابت فى عدة أحاديث صحيحة.

المبحث الثانى

حاجة الإنسانية إلى العقيدة الصحيحة

إن الإنسان آية الله فى خلقه، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة، مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى زكاة النفس، واستواء الفطرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماما بتمام، وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخط سَوى المنهج، قوى السبيل، زكى الباعث، نبيل المقصد، متعلقا بمعالى الأمور، نائيا عن سفاسفها، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا فى رحاب الإيمان بالله، وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل، فلابد له من ارتباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه فى هذا الكون، الذى يستقر فيه[1] ، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهى ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها[2] .

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية مركوزة فى فطرته، ومغروسة فى شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار[3] .

هذه الحاجة الفطرية فى الإنسان إلى الدين، هى التى يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه فى هذه الحياة، ورسالته وعمله ودوره[4] .

---

(١) أحمد السايح : العقيدة فى الإسلام، مجلة " جوهر الإسلام"، العدد الثانى والثالث، من السنة الثانية ١٣٩٦ هـ، تونس، ص ١٦ .

(٢) أحمد السايح : حاجة الإنسانية إلى ظهور الإسلام، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١١هـ، ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٤) أحمد محمد جمال: الدين فطرة وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة ١٣٨٩ هـ، ط: رابطة العالم الإسلامى، بمكة المكرمة، ص ٣٠٠.

وقد أودع الله – سبحانه وتعالى – فى الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى فى الوجود[1] وندبه الله – سبحانه وتعالى – للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التى يراها الحس والعقل والوجدان، فى الآفاق وفى النفس، وفى كل شىء[2] ففى الأرض آيات للمؤمنين، وفى السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السليمة هى التى تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع، وتنتهى إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه ﷻ[3].

فالإنسان لا غنى له عن الدين؛ لأنه يحسه فى نفسه، شعورًا ووجدانًا، ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[4].

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

ففى هذه الآية: بين الله – تعالى – أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل، على هيئة الذر، وذلك قبل خلقهم فى الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ ﴾ فأجابوا: ﴿ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ بذلك، فالله – سبحانه وتعالى – أشهدهم على ربوبيته، حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين[5].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

(٢) قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

(٣) عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، ط: الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض، سنة ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤م، ص ١٦.

(٤) رواه البخارى، ج: ٣، ص: ٢١٩.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج: ٢، ص: ٢٦١-٢٦٤.

فالإيمان بالله فطرة فطر الله الناس عليها، وإنما يضلون عنها بعض الوقت أو كل الوقت، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعى الألوهية، ويقول لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]. وسام بنى إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق، قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

والمشركون بالله، والكافرون به، فى كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام، فإذا مسهم الضر فى البر أو البحر، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

ومن هذا يتبين: أنه يوجد فى طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل فى فطرة الإنسان، وموجود فى أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده، فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة فى الكيان البشرى، فطرة أودعها الله الخالق فى هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى[1].

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله كائن، بل إنه جميعا من أعلاه إلى أسفله يهتف فى البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

والإنسان وإن كان يساوى الكون فى العبادة بفطرته، فإنه ينبغى عليه أن يفوقه منزلة، وأن يعلوه فيها درجات، تتناسب وتركيبه، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة،

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، ج: ٣، ص: ١٣٩١ .

والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب، بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحيانا، وأن يغفل أحيانا، وأن يجحد أحيانا، وأن يكفر أحياناً؛ لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال الإنسان بمطالب جسده، وبمطالبه المختلفة، التى تستلزمها حياته فى الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطرى للتوحيد، عرضه لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللاشعور فى أعماقه، ويصبح الإنسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللاشعور، فيظهر جلياً واضحاً فى الإدراك والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون[1] وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزى، ومشترك بين الناس، عامة فى كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان من عقيدة دينية على نحو ما – « وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين»[2] – إذ لابد فى حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس فى ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، فى أمن وسلام، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفسا أمارة بالسوء، وهو يعيش فى صراع بين عقله الهادى إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التى توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحمله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد بأن يعبده ولا يشرك به شيئا، وأمده بهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام[3].

---

(١) محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، بتصرف يسير، ط: دار الشروق، بالقاهرة، سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م، ص ٤٧ .

(٢) محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة، سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م، ص٧.

(٣) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ط : دار الرشد بالرياض، سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م، ص ١٢٦.

إذن « لكى تتحقق الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشادًا للملأ الأعلى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. لابد لقوة الخير فى الإنسان من مدد يعينها ويغريها على سد منافذ الشر والطغيان»[١].

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التى لا حياة له إلا بها[٢]. والله – سبحانه وتعالى – قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم بل اختار لهم نظمًا وأحكامًا تسعدهم فى الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذى يرغم الناس على كمال الطاعة، ولهذا جهل الله سبحانه وتعالى فى كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير ويعالج الشر ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقد شرع الله – تعالى – لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم[٣].

وإذا كان الدين والتدين أمرًا غريزيا وفطريا فى الإنسان، فى كل زمان – كما عرضنا – فإن الدين الإسلامى هو: الدين الحق الذى رضى الله – تعالى – للناس جميعا، والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] تعنى : مجموعة المبادئ الإسلامية وتعاليم الإسلام .. فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها . إذن رسالة الإسلام هى الإسلام الشامل للإنسان فى وحدة إيمانها بالله، قال تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣]. ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى الفكر الدينى، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويشتمل

---

(١) محمد شلتوت: من توجيهات الإسلام، ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٥٩م، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٤ .

(٣) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص ١٢٧ .

على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعا، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها[1] .

فالديانات وإن تعددت فى الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت فى المصدر الذى صدرت عنه، وهو الله – تعالى – واتحدت – أيضا – فى الأصل الذى دعت إليه، وهو التوحيد، فالقدر المشترك بين الرسالات جميعا هو: تصحيح العقيدة أولا، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة فى تلك البيئات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد جاء الإسلام فى جانبه الإيمانى، يؤكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبى، ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع هو الذى جعل الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر، لعل هذا هو السر الذى جعل الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ[2] .

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل، أو التشكك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمنى بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده[3] .

---

(١) أحمد السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص ٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م.

(٢) أحمد السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام ، ص ٢٨-٢٩ .

(٣) يوسف القرضاوى: العبادة فى الإسلام، ط : المكتب الثقافى ، بالقاهرة، ص ١٨ .

فالإيمان بالله – سبحانه وتعالى – ليس غريزة فطرية، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضرورى، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسى والروحى، فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس دينا فقط، ولكنه دين ونظام وحياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعا[1].

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادى والإلحادى.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنى بطبعه، معنى ذلك أن الإنسان بفطرته يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق سبحانه وتعالى التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. هذا التعارف ليس مقصودا لذاته، وإنما جعل أولاً غذاء لطبيعة الإنسان، وثانيًا: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبها المادى والفكرى، وبيَّن ذلك المفكر محمد عبد الله دراز، فيقول:« إنه لا قيام للحياة فى الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن السلطان نازع ووازع يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرمته[2].

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر – دون أن نجانب الصواب:- أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها فى كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة، والسر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها

(١) أنور الجندى: منهج الإسلام فى بناء العقيدة والشخصية، ط: دار الاعتصام بالقاهرة، ص ٢٩.
(٢) محمد عبد الله دراز: الدين، ص ٩٨.

شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع فى يده ولا فى عنقه ولا يجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة، وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها»[1] .

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السقوط أو السجن، أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما إلهى أو وضعى: لأن كل حضارة شطران: شطر روحى، وشطر مادى، فالشطر المادى الذى يعتمد على الحس والعقل، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى، والشطر النظرى: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع[2] . ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل فى الجانب النظرى، فشملت التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هاد للعقل، كان لابد فى استخدام العلم من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة والإيمان.

ولا يخفى على أهل العلم: أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن فى نشر العلم والثقافات وحدها ضمانًا للسلام، والرخاء، وعوضًا عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى[3] . ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير[4] فكما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلابد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٨ .

(٢) د. عبد الحليم محمود: الإسلام وتنظيم المجتمع، ط: دار الكتاب العربى، مصر ، ص ٥ .

(٣) د. محمد عبد الله دراز: الدين، ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق، ص ٩٩.

محصورة فى الجانب الحسى المحض فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين بالحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماوية يكفل للمجتمع الإنسانى كل عوامل السعادة، والأمن، والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعى، ولا يضعه فرد، أو جماعة معينة؛ ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

والحق، أن الدين الإسلامى فيه صلاح للناس جميعًا حتى الذين لم يرزقوا حظًا وافرًا من التفكير العقلى السليم؛ ولذلك كان الوحى الإلهى رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا ترى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية، نراه كفيلاً بصدور صاحبه فى أقواله وأعماله عن عقيدته، وضميره ونفسه، وعن مراقبته الله فى السر والعلن، لا خوفًا من الناس، أو عقاب القانون الوضعى، هذا العقاب الذى يفلت منه الكثير من الناس[1].

والله الذى خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو خبير بكل علله، وأدوائه، والعليم بوسائل شفائه، وهو وحده الذى يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذى يدعوه إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، ويحملهم على الأخذ بتعاليمه ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شىء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس[2].

فالإسلام نظام ربانى، يقوم على مبادئ أساسية، رضيها الله لعباده دستورًا يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال

---

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٨.

(٢) د. محمد حسين الذهبى: الدين والتدين، دراسة بمجلة البحوث الإسلامية، ج: ١، الصادرة سنة ١٣٩٥ هـ، ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض، ص ٥٤.

والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض، على أساس قوى متين، من رباط العبد بخالقه[1].

فهو إذن مطلب إنسانى، رفيع يغذى جانب الروح، ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمع العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضروريًا لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[2].

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، فى ملكاتها ومظاهرها، ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله – تعالى – ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصلية ركبت فيه، وفطر عليها؛ ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذى يعلم السر وما تخفى الصدور فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملا لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية، والاجتماعية.

وبعد هذا العرض، يمكن للإنسان أن يستوضح وظائف الدين وحاجة البشرية إليه.

فالدين يزكى النفس، ويطهرها، ويقيم فى حواسها الوازع القوى الذى يحول دائما بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائمًا بمراقبة الله له فى كل شىء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغى أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين؛ لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية، فالدين يقيم نظاما يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

---

(١) محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام، ص ١٨ .

(٢) د. محمد عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع، ط: الرابعة، الأنجلو المصرية، بالقاهرة، ص ٩٢.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض، كذلك فإن الإنسانية فى حاجة إلى الدين لتربية الإنسان الذى كرمه الله تعالى فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية عقيدة وسلوكًا نزعة فطرية، وأصيلة ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة، وبأنه النور الذى يضىء للسالك الطريق، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لابد له من العقيدة الصحيحة، التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة، والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادئ الإنسانية، التى قام الإسلام عليها، ولما قام عليها هذا الدين من المساواة والعدالة والإحسان، كان لذلك أثر بالغ فى سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له فى أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأساليب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد وسلطان، سعد به العالم الذى عاش تحت لوائه[1] .

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج نستمد يقيننا الذى لا يتزعزع فى أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء[2] .

---

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة ، ص ٢٥ .

(٢) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، ط: السادسة، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل، سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص ١١٤.

فالعقيدة هى أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هى أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين فى حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك فى تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير.

وإن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية فى هذا العصر، فسوف يجد أنها فى أمس الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل، ولكن قصة البشرية – برغم التقدم الحضارى – فيها مساوئ كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم، فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه المكبوتة، وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة؛ وإلى شذوذ فى الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط أو متصرف.

ومن تعاسة الحضارة المادية، أنها عكست كرائم النعم، والملكات التى أنعم الله بها على الإنسان فى وديان الهلاك والدمار وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ فى السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبز، والارتخاص، والابتذال، والخلاعة[1] .

لقد تقدمت العلوم بلا ريب، ولكن هذه الحضارة التى علمت الناس كيف يسبحون فى الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون فى الفضاء، وفى الهواء، وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض فى طريق الخير بغير عوج والتواء.

إن الغرب اليوم فى حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام فلم يعد يجد اليقين الذى يفىء إلى ظله، فى جو من الهدوء والراحة والاستقرار[2] .

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٢٦.

والبشرية اليوم فى مفترق الطريق، فهناك اضطرابات فى الأفكار وحيرة فى الاتجاهات، وزعزعة فى النظم، وخواء من العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب، إلى هاوية المادية. وعلى كلٍ فقد وقع المحظور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة، ووجهة نظر، ونفسية، وعقلية، وأخلاق، واجتماع، وعلم، وأدب، وسياسة، وحكم، وكان ذلك تدريجيا، وكان أولاً ببطء وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون نظرًا مؤسسًا على أنه لا خالق ولا مدبر، ولا آمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تتصرف فى هذا العالم، وتحكم عليه، وتدبر شئونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت، وسموا هذا نظريًا علمًا مجردًا[1].

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمى الهائل الذى وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوربى يهرب من حضارته؛ لأنه لم يحس فى ظلها بالسعادة، ولم يحس فى مجتمعه بالأمن والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل، والخطف، والتخريب، والإرهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور وأقيمت نوادى العراة وأبيح فى غير استحياء الشذوذ الجنسى، إلى غير ذلك.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أى عون للإنسان، أو الأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية؛ لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه – عند التطبيق – قوة فعالة مؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد، وحياة الجماعات لجميع الجوانب.

---

(١) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص ١٧٨، ط : دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤.

المبحث الثالث

مزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها

١- عقيدة واضحة:

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد:

فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص فى أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربًا واحدًا خلقه ونظمه، وقدر كل شىء فيه تقديرًا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦].

وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائمًا يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد.

فليس فى عقيدة التوحيد ما فى العقائد الأخرى مثل الوثنية ونحوها من الغموض الذى يعتمد دائما على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين (واعتقد وأنت أعمى).

٢- عقيدة الفطرة :

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]. وصريح الحديث النبوى: «كل مولود يولد على الفطرة (أى على الإسلام) وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه»[١] ، فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين.

---

(١) متفق عليه.

٣- عقيدة ثابتة:

وهى عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل.

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق، والميزان العادل: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]. ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وهناك يقسم العباد إلى شقى وسعيد، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٦- ١٠٨].

والجنة دار هيأها الله لمثوبة الصالحين من عباده، وأعد فيها من النعيم الروحى والمادى ما عبر الله عنه فى الحديث القدسى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

إن الحياة فى هذه الدار هى الحياة الحقة، وإن نعيمها هو النعيم الذى يقصر الخيال البشرى عن وصفه، إنه ليس نعيماً روحياً خالصاً، ولا نعيماً مادياً صرفاً، وإنما هو مزيج من الأمرين، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحاً مجردةً، ولا مادةً بحتةً، إنما هو مركب منهما، والإنسان فى الآخرة امتداد لإنسان الدنيا، وإن اختلف الكيف والتفصيل، فلا عجب أن يكون فى الجنة فاكهة ولحم وطيور وحور عين ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

والنار دار أعدها الله لعقوبة الفجار من الخلق، وهى تجمع العقوبتين المادية والروحية معا .. فهناك العذاب الحسى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]. هناك العذاب النفسى الذى يمثل فى الهوان والخزى كقوله تعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها

أو يحوّر فيها، وكل تحوير أو إضافة مردودة على صاحبها، والنبى ﷺ يقول: «من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد»[1] أى مردود عليه.

والقرآن يقول مستنكرًا: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]. وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التى دست فى بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

٤- عقيدة مبرهنة:

وهى عقيدة «مبرهنة» لا تكفى من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى «اعتقد وأنت أعمى» أو « آمن ثم اعلم» أو «أغمض عينيك ثم اتبعنى» أو «الجهالة أم التقوى» بل يقول كتابها بصراحة: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤]، ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفليسوف المسيحى (أوغسطين): «أؤمن بهذا لأنه محال» ! بل يقول علماؤها: إن إيمان المقلد لا يقبل.

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليها أساساً للاعتقاد، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذى يملك أزمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماؤها: إن العقل أساس النقل، والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح.

فنرى القرآن فى قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون، ومن النفس، ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله.

وفى قضية البعث يدلل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل على حكمته بالعدالة الإلهية فى إثابة المحسن، وعقوبة المسىء ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣١].

---

(١) متفق عليه .

٥- عقيدة وسط:

وهى عقيدة وسط لا نجد فيها إفراطًا ولا تفريطًا:

هى وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون أن للعالم أكثر من إله، بل يحلون روح الإله فى الملوك والحكام بل فى بعض الحيوانات والنباتات مثل الأبقار والأشجار، فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت التعديد الجاهل، والإشراك الغافل، وثبتت للعالم إلهًا واحدًا، لا إله إلا هو ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٨].

وهى عقيدة وسط فى صفات الإله:

فليس فيها الغلو فى التجريد الذى يجعل صفات الإله مجرد أسلوب لا تعطى معنى، ولا توحى بالخوف أو رجاء، كما فعلت الفلسفة اليونانية – فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا .. من غير ما تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها فى هذا العالم؟

ويقال هذا؛ لأنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية .. جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحاباة والقسوة ...و.. وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء فيصارعه فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بقلب جديد !!

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله – إجمالا – عن مشابهة مخلوقاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. ومع هذا تصفه تفصيلا – بصفات إيجابية فعالة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ

عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج: ١٢-١٦].

وهى وسط بين التسليم الأبله الذى يأخذ عقائد الآباء بالوراثة، كما يرث عنهم العقارات والأملاك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شىء حتى الألوهية، وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التى بين جنوبهم، ولا ماهية حياتهم وموتهم، ولا كنه شىء من القوى الكونية المحيطة بهم، فكيف يطمع العقل بعد ذلك فى معرفة كنه الألوهية؟ وهل يعرف النسبى كنه المطلق؟ ويعرف المحدود حقيقة غير المحدود ؟!

وهى مع هذا تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكير فيه، يقول الرسول: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا»[1]، ويقول القرآن: ﴿ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ ﴾ [الروم: ٨]. ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ شَىْءٍ مِّن ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وهى وسط فى علاقتها بالعقائد الأخرى؛ فلا تقبل الذوبان فى غيرها، بل تدعو فى قوة إلى الثبات عليها والاستمساك بها: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]. ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣]. ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ [الشورى: ١٥]. بل يتسع صدرها لما يخالفها: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿ لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

---

(١) الحديث روى بألفاظ متعددة، من طرق مختلفة، بأسانيد كلها ضعيفة، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح كما قال البخارى فى المقاصد الحسنة.

تهيب بأصحابها أن يدعوا إليها: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. ولكنها لا ترضى بإكراه أحد على اعتناقها: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لا تقبل التهاون فى معاداة من يحاربونها ويضعون العراقيل فى سبيلها وإن كانوا من ذوى القرابة القريبة: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يتعدى على أهله: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهى وسط بين الذين يتساهلون فى إثبات العقائد فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام، وهذا معين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير، وبين الذين لا يقبلون فى العقيدة أى خطرة تمر بالذهن ثم تخفى، أو هاجس فى النفس ثم يزول، لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن فى أصول العقيدة – فضلا عن الشك أو الوهم – قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٣٦]. ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

ومع هذا تسامحت فى الخواطر التى لا يسلم منها العقل البشرى، بل اعتبرتها أحيانا دليل يقظة العقل، ومظنة للطمأنينة وعلو اليقين. قال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنا نجد فى أنفسنا ما لو أن نصير حمما – فحما محترقا – أهون من أن نتكلم به – يعنون خطرات ترد عليهم فى قضايا الألوهية – فقال النبى ﷺ فى صراحة وقوة: أو قد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان[1] .

(١) رواه البخارى وغيره .

ويرى الحاكم أن ابـن عبـاس وابن عمر رضى الله عنهم أجمعين التقيا، فقال ابن عباس رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرجى؟ فقال ابن عمر رضى الله عنهما: قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فرضى منه بقوله: بلى، فهذا ما يعترض فى الصدر مما يوسوس به الشيطان.

إنها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها إلهام الملك فى قلب المؤمن، إنها طيف يلوح ثم يختفى، وهاجس يهجس ثم يزول بإسلام الوجه لله، والاعتصام بهداه، وتـلاوة آياتـه ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

وهى وسط فى أمر النبوة، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية، فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله، كما اعتقد أهل الملل فى أنبيائهم، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات، وفعل المنكرات من شرب المسكرات: واتباع للشهوات بل قتل النفوس فى سبيلها – كما رأينا فى وصف أسفار العهد للأنبياء.

وإنما الأنبياء فى عقيدة الإسلام بشر أصفياء، علم الله طيب معادنهم، وحسن استعدادهم، فأنزل وحيه عليهم ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنىء الأعمال، حتى لا يتوجه إليهم وعيد الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]. وحتى يكونوا أهلا لعهد الله تعالى ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

٦- وحدة العقيدة فى الإسلام:

ومن الأصول الأساسية التى جاء بها الإسلام، وتعد من أهم الركائز لوحدة المسلمين، مهما اختلفت بهم الأقطار، ومهما تباينت جنسياتهم، وتمايز جنس من

الأجناس، أو لون من الألوان، أو مصر من الأمصار.. كلا بل هى واحدة دائما عند كل المسلمين، تقوم على الإيمان بالله، وبرسوله ﷺ وبكل ما فى القرآن وأن الإسلام هو الإسلام، والقرآن هو القرآن. وأساس العقيدة: هو الإيمان بوجود الله تعالى، بل إن ذلك هو أساس الدين كله؛ لأن الإيمان يدفع الإنسان إلى التصديق بكل ما أخبر به، وتنفيذ كل ما أرشد إليه من أمر ونهى[1].

وقد عبر القرآن الكريم عن العقيدة: بالإيمان، والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل[2] وعناصر هذه العقيدة: مبثوثة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن أجمعها على سبيل الاستشهاد: قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة[3].

والآية – كما ترى -: مشتملة على خمس عشرة خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام: فالخمسة الأولى منها: تتعلق بالكمالات الإنسانية، التى هى من قبيل صحة الاعتقاد، وآخرها، قوله: (والنبيين) وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد ....والستة التى بعدها: تتعلق بالكمالات النفسية، التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد، وأولها (وآتى المال)، وآخرها: (وفى الرقاب) والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية، التى هى من قبيل تهذيب النفس، وأولها: (وأقام الصلاة)، وآخرها (وحين البأس). ومن عمل بهذه الآية: فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإيقان[4].

---

(١) أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٦ .
(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٦، بتصرف.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٢٠٧.
(٤) الألوسى: روح المعانى ، ج١، ص ٣٥٩ .

ومن أجمع ما ورد من حديث رسول الله ﷺ فى عقيدة المسلمين، ما جاء عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :« بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج»[1].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولا»[2]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة فى عقيدة المسلمين، وهى فى حقيقتها مبينة لما جاء به القرآن الكريم، موضحة له.

وعقيدة المسلمين واحدة لدى كل المسلمين، فى شرق الأرض وغربها، وشمالها، وجنوبها، تجمع عليها قلوبهم، وتحفظها عقولهم، وتستيقنها أنفسهم.

ووحدة العقيدة جددت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم، وإذا كانت أبوة آدم عليه السلام أبوة مادية، تجمع بين الأمة الإسلامية، وتوحد بينها فى الأصل، فإن العقيدة الإسلامية هى أبوة روحية ترجع إليها فروع المؤمنين، والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحى، الذى يجمعه معهم إلى أبوة واحدة، فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه، ويحيا لهم كأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة، يحيا بحياتها، ويموت بموتها.

وإن رابطة العقيدة فى الإسلام أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب، والمساكنة فى الوطن، والمشاركة فى القومية.

وهذا الأساس: هو المنطلق الوحيد للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية، والقبلية، والقومية، إلى صعيد اللقاء الإنسانى، على أساس المبادئ المتينة الراسخة، مبادئ الحق والعدل والخير، وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته، عالج الإسلام النفس الإنسانية إعدادًا لها لتحقيق التعارف والتعاون.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم، ج١، ص ٤٩ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، فهو مؤمن، ج١، ص ٦٢.

وانطلاقا من مفاهيم العقيدة التى جاء بها الإسلام أعد الإسلام النفوس للتعارف والتعاون الإنسانى، ذلك أنه جعل العصبيات بأنواعها فسوقا، وخروجا عن العقيدة، وانحرافا عن حياتها.

والعقيدة تعنى الارتباط بين القلب البشرى وفكرة أو رأى أو منهج معين، وإن هذا الارتباط يتميز بالوثاقة والقوة والإحكام، كما يتسم بالثبات، والاستمرار والاستقرار[١].

والعقيدة هى الأمر الذى تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقينا عند صاحبه ولا يمازجه شك، ولا يخالطه ريب، فالعقيدة مجموعة من قضايا الحق المسلم بها بالسمع والعقل والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره، جازما بصحتها، قاطعًا بوجودها وثبوتها[٢].

ويذكر العقاد أننا نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعنى بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليترقب مكان العقيدة، من قرارة ضميره، إنما نعنى بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرءوس، أو يملأ الصفحات[٣].

إن العقيدة التى يصح أن توصف بالعقيدة الدينية هى التى لا يستغنى عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم، واستقر فيها على قرار[٤].

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر كلمة «عقيدة» وذكر مادتها اللغوية، فإن القرآن الكريم ذكر حقائق أساسية كبرى هى فى مجموعها موضوع ما يسمى العقيدة أو العقائد.

وفى مجال العقيدة أو العقائد جاء القرآن الكريم بكلمة "الإيمان"، وللقرآن الكريم طريقته الخاصة فى عرض الحقائق وهى طريقة تصلح فى آن واحد للخاصة من الناس والعامة منهم[٥].

---

(١) السيد رزق الطويل: العقيدة فى الإسلام منهج حياة، ص ١٥ - ١٦.
(٢) آمنة محمد نصير: مباحث فى علوم العقيدة، مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤ هـ، ص ١٠.
(٣) عباس محمود العقاد: العقائد والمذاهب، مجلد رقم ١١، ط٢، دار الكتاب البنانى، ص ٤٠٢.
(٤) المصدر السابق، ص ٤٣١.
(٥) محمد المبارك: العقيدة فى القرآن الكريم، ط ١٠ دار الفكر، بيروت، ص ٩.

ثم إنه إذا كانت كلمة العقيدة تعنى الربط والتوثيق، فإن كلمة الإيمان « تعنى الربط والتوثيق مضافاً إليها ما يطمئن إليه القلب، ويقتنع به اقتناعا ذاتيًا ونفسيًا».

وهذه الحقائق الأساسية عرضها القرآن الكريم على الناس، وأيدها بالأدلة والشواهد ودعا إلى تصديقها والإيمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة، وهى التى تؤلف جو القرآن العام، والأساس الذى تتفرع منه قواعده الخلقية، وأحكامه التشريعية، لا تنفصل عنه أبدًا، وهى القاعدة الفكرية التى أراد الله أن يقيم عليها بناء الإنسان وتكوينه[1]. ولقد دعا القرآن بإلحاح إلى الإيمان بهذه الحقائق الكبرى، دعا إلى الإيمان بالله خالق الكون، وبالحياة الآخرة، التى تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدى، وبالنبوة والوحى طريقا إلى معرفة الحقائق التى يريد الله أن يلقيها إلى الإنسان، سواء أكان موضوعها عالم الغيب أم حقائق ما وراء المادة، أم كان توجيه الإنسان وتنظيم شئونه فى هذه الحياة[2] .

ومما لا يخفى على الإنسان: أن هناك نوعًا آخر من الحقائق اشتمل عليها القرآن الكريم، ووردت فيه على أنها طريق إلى الحقائق الأساسية – من الإيمان بالله والحياة الآخرة وبالنبوة والوحى – ووسيلة للوصول إليها، ولكنها تتكرر فى سور القرآن فى صور وأشكال شتى مرافقة للحقائق الأساسية؛ لتأييدها ودعمها، ويشتمل هذا النوع على مشاهد الكون فى القرآن الكريم بآفاقه الواسعة، وأنواع مخلوقاته المختلفة، وحوادثه المتبدلة، وسننه المطهرة، ويشتمل بوجه خاص على حياة الإنسان فى خلقه وتكوينه وميوله وغرائزه فى أجياله المتعاقبة، ومن عرف الحقائق الأساسية استطاع أن يخرج بفكرة شاملة عن:

- نظرة الإسلام إلى الوجود: وجود الخالق، وجود العالم المخلوق: الكون والإنسان.
- نظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون، وبين الله والإنسان، وبين الكون والإنسان.

---

(١) المرجع السابق: بتصرف، ص ٩ .

(٢) المرجع السابق: بتصرف : ص ١٠ .

ويتكون من مجموع ذلك عقيدة كاملة، ونظرة شاملة، وهذه العقيدة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة.

٧- شمول العقيدة الإسلامية:

وذلك أن العقيدة الإسلامية، عقيدة شاملة، ومن أى جانب ينظر الإنسان إليها، لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية، بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية، كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لها أعظم المعجزات التى أثبتت فى حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة، أنه وحى من عند الله[١].

ومن ثم – كما يقول العقاد: كانت هذه العقيدة الإلهية فى الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية.

وهى عقيدة كاملة، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين؛ لأنه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه، ساقه إلى الخطأ إلى القول بكمال مطلق، كالعدم المطلق فى التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح[٢].

ودين يصحح العقائد الإلهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضارتها ومذاهب فلاسفتها[٣].

وما كان الشمول فى العقيدة الإسلامية ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً، بغير بخس ولا إفراد فى مَلكة من هذه الملكات[٤].

والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول؛ لأنها تفسر كل القضايا الكبرى فى الوجود، القضايا التى شغلت الفكر الإنسانى، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال،

---

(١) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ج ٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٤٠.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم السايح: هذا هو الإسلام، الدوحة، دار الثقافة، ص ١٦٣.

(٣) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ج٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٦٠ – ٦١.

(٤) المصدر السابق: الجزء نفسه، ص ٣٢.

وتتطلب الجواب الحاسم، الذى يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينشله من متاهات النحل المتضاربة، قديماً وحديثاً، فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروى فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح ووضوح شامل[١] .

ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره. والناظر فى تشريعات الدعوة الإسلامية، يرى أنها كانت مع الإنسان، جنينا فى بطن أمه، وبعد مولده، وفى شبابه، ورجولته، تسايره هكذا فى أطواره المختلفة، حتى يأتيه أجله[٢].

وتتمثل خاصية الشمول التى يتسم بها الإسلام فى رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور، وكل تطور، والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه، إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية، الأزلية، الأبدية المطلقة[٣] .

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول؛ لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، ولابد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار[٤].

وشمول العقيدة الإسلامية، هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى من تحويل الأمم العريضة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية، والبرهمية فى مصر وسوريا، وفارس، والهند، والصين .

إن شمول العقيدة الإسلامية، هو العامل القوى الذى يجمع إليها النفوس ويحفظ لها قوى الإيمان[٥] . ومن آثار شمول العقيدة فى الإسلام نرصد انعكاس ذلك فى شمول العبادة فى الإسلام.

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦ .
(٢) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٣٠٠ .
(٣) د. سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى، ط: دار الشروق، سنة ١٤٠٠ – ١٩٨٠ م، ص ٩٢.
(٤) د. يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨ .
(٥) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ٢٦ .

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامى فى عباداته كما تمثلت فى عقيدته، فالعبادة فى الإسلام تستوعب الكيان البشرى كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجردًا، أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها؛ بلسانه ذاكرًا، داعيًا، تاليًا، ببدنه مصليًا، صائمًا، مجاهدًا، وبقلبه خائفًا، راجيًا، محبًا، متوكلاً، وبعقله متفكرًا، متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها فى طاعته سبحانه وتعالى[1]، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وأن هذا النص القرآنى الكريم – كما يقول الشهيد سيد قطب: ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، ومن جوانب هذه الحقيقة: أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. فالخلافة فى الأرض عمل هذا الكائن الإنسانى، وهى تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى، من أجل عمارة الأرض، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها، وتحقيق الإرادة الإلهية فى استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها. كما تقتضى الخلافة: القيام على شريعة الله فى الأرض؛ لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع السنن الكونية، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة – التى هى غاية الوجود الإنسانى، أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى – أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعا[2].

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنسانى كما هى غاية كل وجود، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذى يرد إلى الذهن، والذى يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التى يؤديها المؤمن.

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، ج٦، ص ٣٣٨٦- ٣٣٨٧ بتصرف.

ولفظ العبادة بمعناه العام: يعنى السير فى الحياة ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى وفق شريعته الغراء[١].

والعبودية – كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – تشمل كل ما يحب الله ويرضى، من الأقوال والأفعال[٢].

ولفظ العبادة: يطلق على كل عمل تحقق فيه الشروط ا تية:

١- أن يكون العمل نافعًا مفيدًا، وصالحًا فى الحياة.

٢- أن يراد بهذا العمل وجه الله – سبحانه وتعالى – لارتباط الأعمال بالنيات «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[٣].

٣- أن يؤدى العمل بلا مخالفة شرعية « فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[٤].

فإذا تحققت هذه الشروط فى أى عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: أن نلقبه بالعبادة، وأنه مما يحب الله ويرضى، وأنه فى سبيل الله[٥].

والغرض من العبادات: تنبيه المتدين إلى حقيقتين، لا ينساهما الإنسان فى حياته العامة أو الخاصة:

الحقيقة ا ولى: التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هى: وجوده الروحى، الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

الحقيقة الثانية: التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هى : الوجود الخالد الباقى، إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية.

وعبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين[٦].

---

(١) د. عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية ، ص ١٤٨ .
(٢) ابن تيمية : رسالة العبودية، ص ٤ .
(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الوحى .
(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى كتاب البيوع باب النجش.
(٥) د. محمد رأفت سعيد: التوازن فى التصور الإسلامى، ص ٢٧-٢٨ .
(٦) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١١١- ١١٢ باختصار.

لقد عد الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى، وقضيته الكبرى. توحيد الألوهية، وأفردها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبودية لكل شئ، ولكل حى، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعا[١].

قال كعب بن عجرة ﷺ: مر على النبى ﷺ رجل ذكر أصحابه من جَلَده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا فى سبيل الله؟ فقال: «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أولادٍ صغار فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو فى سبيل الشيطان»[٢].

وعن أبى هريرة ﷺ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموالٍ: يحجون، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون. فقال: «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا مَنْ صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبحون، وتحمدون، وتكبرون، خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين» قال أبو الرواس عن أبى هريرة، لما سئل عن كيفية ذكرهن، قال: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاثا وثلاثين[٣].

ومن شمول العقيدة فى الإسلام نرصد شمول التشريع الإسلامى كذلك، والتشريع الإسلامى تشريع كامل بكل معنى الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره إلا وللشريعة حكم فيها[٤].

إن الإسلام لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلا عن غيره من المجتمعات. إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد فى عبادته وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم العبادات فى الفقه الإسلامى.

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، ط: دار الشروق، ص ١١٦ .
(٢) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب، ج٢، ص ٥٢٤ .
(٣) رواه البخارى (٢ / ٢٧٠، ٢٧٢) ومسلم (٥٩٥) .
(٤) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٥١ .

ويشمل التشريع الفرد فى سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى الحلال والحرام، أو الحظر والإباحة[١] .

وارتبط التشريع الإسلامى بالإيمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، ومنهجه الذى ينظم شئون الحياة فى جميع جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، إذ إن رسالة الإسلام عامة شاملة، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، كما تنظم حياة الإنسان فى الدنيا تنظيما يربطها بالعقيدة، ويخضعها لأحكام التشريع الإسلامى[٢].

والإسلام حين يبنى تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس، إنما يهدف إلى غاية يعمل على تحقيقها فى كل جوانب الحياة، هذه الغاية هى : صلاح المجتمع الإسلامى، وتحقيق الخير والفلاح له فى كل شئون حياته، ودفع الضرر والفساد الذى يصيب الفرد أو المجتمع، إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره[٣] .

كما أن الشريعة الإسلامية لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وإنما هى شريعة كل وقت، وكل عصر، وكل زمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يراجع أحكام الشريعة، يجد أنها كاملة لا نقص فيها، ولا قصور، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول، فقد صيغت نصوص الشريعة، بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جدتها، ولا يقتضى تغيير قواعدها العامة، ونظرياتها الأساسية[٤] .

ولهذا وجدنا التشريع الإسلامى يشمل التشريع للمجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض من البيوع، والإجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والكفالة، والضمان، وغيرها[٥] .

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) د. عبد العظيم فودة: الحكم بما أنزل الله، ص ٢١، ط: دار الصحوة بالقاهرة سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١ .

(٤) د. محمد صالح عثمان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٨، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة ١٤٠١ هـ.

(٥) د. يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام ، ص ١١٥ .

والباحث فى التشريع الإسلامى وما جاء به يكتشف فى وضوح: أن التشريع الإسلامى شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد، وعباداتهم، وسيرهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وآدابهم فى الأكل، والشرب، والجلوس، والقيام، واللباس، والكلام، والشئون الأسرية، والصلات الجماعية، والقضايا المالية، والاقتصادية، والإدارية، وحقوق الوطن، وواجباته، والعدالة، ومرافق الحكومة، وحالات السلم، والحرب، والعلاقات بالأمم الأجنبية، وما إليها[1]، مما عنيت به كتب السير، أو الجهاد فى الفقه الإسلامى .. ومن هنا لا توجد ناحية من نواحى الحياة، إلا دخل فيها التشريع الإسلامى، آمرًا أو ناهيًا أو مخبرًا[2] .

ومن أمثلة الشمول فى التشريع الإسلامى ما يأتى:

- أحكام الأسرة من نكاح وطلاق، وإرث ونفقة، تسمى فى الاصطلاح: بأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية.
- أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد، ومعاملاتهم، كالبيع، والإجارة، والرهن، والكفالة .
- أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى، وأصول الحكم، والشهادة، واليمين، والبينات.
- أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التى يتمتعون بها، والتكاليف التى يلتزمون بها.
- أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها .
- أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية، ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء .
- أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة، من جهة الأفعال المنهى عنها، والجرائم، وإنزال العقوبات بالمجرمين، وكيفية تنفيذها[3] .

---

(١) د. محمد صالح عثمان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٩ .
(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥ .
(٣) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٣٠ .

يبدو شمول التشريع الإسلامى فى أمر آخر، أو بعد آخر، وهو: النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يتأثر بها، والنظر لها نظرة محيطة، مستوعبة مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها، وتطلعاتها، وإشراقها، ومعرفة الحياة البشرية، وتنوع احتياجاتها، وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية، والخلقية بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمايتها[1].

فالنظم الإسلامية ما ضاقت عن حاجة، ولا وقفت عقبة فى سبيل مصلحة، أو عدالة، بل وسعت مصالح الناس، على اختلاف أجناسهم، وألسنتهم، وألوانهم.

ومن شمول العقيدة فى الإسلام نرصد انعكاس ذلك فى شمول الأخلاق فى الإسلام فمن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقى فى الإسلام: الشمول، وذلك لشمول الإسلام جميع جوانب الإنسان فى الإيمان والعبادة، وفى المعاملة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: اتسمت الأخلاق بالشمول، والقوة وعظمة العلاقة بين الإنسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده، لا شريك له، والدينونة لله وحده، بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شىء[2].

فالاتجاه الخلقى للإسلام لم يدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية، إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك .. ففى جانب الإيمان يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[3]، فقوله ﷺ صريح فى أن الأخلاق من الإيمان؛ ولذا عد الإسلام برًا، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فالبر صفة للسلوك الخلقى، ومن هنا كانت الأخلاق فى الإسلام لا تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية .. روحية أو جسمية دينية أو دنيوية. عقلية أو عاطفية .. فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع[4].

---

(١) د. يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥- ١١٦ .

(٢) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، ص ٨١ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده، ج : ٢، ص ٥٠ ، ٤٧٢، ٥٢٧ .

(٤) د. القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٠ .

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم، إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسانى، أو مقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولا يضطره أحد إلى طلبه[1]، ومن هنا: كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقى فى الإسلام، وأن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه.

- جسما له ضروراته، وحاجاته، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقول الرسول ﷺ: « إن لبدنك عليك حقًا»[2] .

- وعقلا له مواهبه وآفاقه. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

فالإسلام يتجلى شموله فى أنه: يتناول الإنسان والكون والحياة، ثم يتناول الإنسان من جميع جوانبه، الخارجية المادية، والداخلية الروحية؛ ليستقيم سلوكه وحياته وأخلاقه، وقد ربط بينهما بتوازن دقيق، قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]. وبذلك فإن الإسلام لا يفصل بين روح الإنسان وجسده، وبين فرديته وجماعيته، وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته أشطارًا مختلفة، كما هو الحال فى المذاهب البشرية الأخرى[3].

والإسلام يلائم بين المادة والروح، ويوفق بين الدنيا والآخرة، ويربط بين العبادة والحياة، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدى حق

---

(١) العقاد: الفلسفة القرآنية، ج: ٧، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٣٦ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحة فى فتح البارى، باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع، ولم يرد عليه قضاء، ج ٤، ص ٢٠٩ .

(٣) د. محمد نبيل غنايم وعمر سليمان الأشقر وآخرون: دراسات فى الثقافة الإسلامية، ط: الثانية، مكتبة الفلاح بالكويت، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ٢٣ .

ربه، وحق نفسه وحق غيره بكل دقة وأمانة وتنسيق، وبهذا يتسنى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية العلمية بكل طاقاته، وأشواقه، على أسس مبادئ الإسلام، القائمة على الشمول، والتى توافق الفكرة وتتلاءم مع واقعية الحياة[1] .

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، وفضيلة هذه العلاقة: أنها علاقة سكن، تستريح فيها النفوس إلى النفوس، وتتصل بها المودة والرحمة، والمشاركة القلبية والوجدانية، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

ومن أخلاق الإسلام فى الأسرة: العلاقة بين الأبوين والأولاد، والعلاقة بين الأقارب والأرحام .

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالمجتمع فى آدابه، وفى اقتصاده، ومعاملاته وفى سياسته، وحكمه[2] .

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالحيوان والطير؛ لأن من فضائل الإنسان المهذب: أن يكون رءوفا بالضعفاء، عطوفا على البؤساء، رفيقا بالمحتاج إلى الرفق من الخلق، رحيما بمن مسه الضر، وعضه الدهر، جاهداً فى كشف ضره، وتفريج كربه، والإحسان إليه، والعطف عليه، متخلقًا بهذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة، يجد فيها إمتاع نفسه وانشراح صدره، وارتياح قلبه، بريئا من القسوة، وتحجر القلب، وجمود

---

(١) عبد الله ناصح علوان : هذه الدعوة، ما طبيعتها ؟ ط: الثانية: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة، سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٤٣ .

(٢) د. يوسف عبد الهادى الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، ط: الأزهر سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧١م، ص ١٦٩ - ٢٨١ .

العاطفة، لا بالنسبة لأخيه الإنسان فحسب، بل وكذلك بالنسبة للحيوان الأعجم، الذى لا يملك لنفسه نفعا، ولا عنها دفعا، بل يكون به أرفق، وله أرحم. ويسلك صفات الرحماء من الناس ذوى النفوس الزكية، والقلوب النقية الصافية التى ترحم العاجز الضعيف وتبره، ولو لم يكن من بنى الإنسان، وتبغض الجور والعسف وتمقته، ولو فى أمر الحيوان[1].

قال رسول الله ﷺ: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[2].

(١) حسنين محمد مخلوف: الرفق بالحيوان، ط: مطبعة المدنى بالقاهرة، سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م، ص ٥.
(٢) رواه أحمد فى مسنده، ج ٢، ص ١٦٠.

المبحث الرابع
مقتضيات العقيدة الصحيحة

خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة كان رسول الله ﷺ يوثق فى قلوب المسلمين « لا إله إلا الله» .

كان ﷺ يعيش مقتضيات لا إله إلا الله أمام أصحابه، ويوجههم إليها، ويعلمهم كيف يعيشونها، كأن يعلمهم كيف يعيشون كل لحظة من حياتهم مع الله.

فإذا أصبحوا قالوا: « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور»: وإذا أمسوا قالوا: « اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير»[1] .

أو قالوا: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير. رب أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر ما فى هذا اليوم وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر»[2] .

وكان ﷺ يردد، ويعلم أصحابه أن يرددوا: « اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء لك بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[3] .

«اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة. اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى. اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى،

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه البخارى .

واحفظنى من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى»[١] .

«اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شىء ومليكه، أشهد ألا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسى سوءًا أو أجره إلى مسلم»[٢] .

«أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٣] .

«اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»[٤].

« يا حى يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين»[٥] .

«اللهم عافنى فى بدنى. اللهم عافنى فى سمعى. اللهم عافنى فى بصرى. لا إله إلا أنت. اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت»[٦] .

وكان يطلب من أصحابه إذا آووا إلى فراشهم أن يقولوا: «اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت»[٧] .

ويقولوا: «باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[٨] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد.
(٣) الإمام أحمد .
(٤) أبو داود.
(٥) النسائى .
(٦) أبو داود.
(٧) الشيخان .
(٨) متفق عليه .

وإذا استيقظوا أن يقولوا: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»[١] .

وإذا لبسوا ثوبا جديداً أن يقولوا: «اللهم لك الحمد أنت ألبستنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»[٢] .

وإذا خرجوا إلى المسجد فى الصباح أن يقولوا: «اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى لسانى نورًا، واجعل فى سمعى نورًا، واجعل فى بصرى نورًا، واجعل من خلفى نورًا، ومن أمامى نورًا، واجعل من فوقى نورًا ومن تحتى نورًا، اللهم أعطنى نورًا»[٣].

وإذا أصاب أحدهم همّ أن يقول : « لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم»[٤].

أو يقول: «اللهم إنى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتبك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى»[٥] .

كان ﷺ يعلمهم – بالقدوة فى شخصه الكريم – كيف يحيا الإنسان فى معية الله، وكيف يكون فى كل لحظة ذاكرًا لله .. صابرًا إن أصابه ضر، شاكرًا إن أصابه خير، متطلعًا دائمًا إلى عون الله، لاجئًا إليه، مستعينًا به، مستغفرًا إياه، مسلمًا بقضائه وقدره، مستعيذًا من غضبه، راجيًا رضاه، فكانوا كما وصفهم الله: ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتجردوا لله، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم كما وصفتهم كتب السيرة، وكان هذا كله – فى فترة التربية فى مكة خاصة- هو مدلول لا إله إلا الله فى نفوسهم، كما تعلموها من رسول الله ﷺ ، كما أنزلت فى كتاب الله.

---

(١) مسلم .
(٢) الترمذى .
(٣) مسلم .
(٤) الشيخان .
(٥) البخارى.

وهكذا – بكل الأدوات والوسائل – توثقت لا إله إلا الله فى قلوبهم وتعمقت، فتعلقت قلوبهم بالله برباط متين، يحبونه ويخشونه، ويتطلعون إليه ويرجونه، ويتهيأون لطاعته فيما يأمر.. فقامت فى قلوبهم القاعدة التى تحمل البناء.. تحمل التكاليف، وتتحرك للوفاء.

ولم يتوجه رسول الله ﷺ إلى حل أى من هذه المشاكل فى بدء عمله فى الدعوة . إنما توجه بأمر ربه إلى الدعوة بلا إله إلا الله، حتى إذا قامت لا إله إلا الله فى قلوب العصبة المؤمنة التى يعدها الله؛ لتكون نواة " الأمة الربانية" وتكون هى " القاعدة الصلبة" التى تحمل البناء، وعلم الله من هذه القلوب أنها تجردت له .. أخذت تتنزل التكاليف، وبدأت «مقتضيات لا إله إلا الله» تتسع حتى شملت الحياة كلها، بما لابد من حلها؛ لكى تقوم الأمة الربانية على أسس قوية صامدة .. ولكن كان لابد – فى المنهج الربانى – أن تتحول تلك القضايا إلى «متطلبات إيمانية» مرتبطة بلا إله إلا الله، لا مجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء البشر ومعايير البشر، وأن يكون الجهد الذى يبذل فى حلها قد بذل ابتغاء مرضاة الله، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التى قد تنتج عنها، وحين حدث ذلك بالفعل كان الأداء على نسق غير مسبوق فى البشرية، وكانت النتائج شيئا يشبه المعجزات![1] .

عندما يذهب الإيمان: فإن الفطرة بذاتها التى خلقها الله عابدة لله على استقامة، وتكون عرضة للمرض والانحراف بتأثير البيئة الفاسدة التى تفسد صفاءها واستقامتها.

وحين تختل الفطرة، وتنحرف عن استقامتها، يصيبها كثير من الأمراض.. أمراض فى الرؤية، وأمراض فى السلوك. أمراض فى الفرد وأمراض فى المجتمع .. أمراض فى الكيان النفسى، والكيان الاجتماعى، والكيان السياسى، والكيان الاقتصادى، والكيان الأخلاقى .. وفى كل جانب من جوانب النفس، وكل جانب من جوانب الحياة . يهبط الإنسان مع الشرك دركات من الهبوط، ومن ثم فقد معنى وجوده!

إن الإنسان حين يفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يستطيع أن يرى الصورة فى تمامها، الذى أنشأه الله «بالحق» وخلق من أجله السموات والأرض «بالحق» فيراها عندئذ شوهاء مبتورة غير ذات معنى ولا حكمة ولا قيمة.

---

(١) محمد قطب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٤٢.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨-٢٨].

﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

وحين يفقد الإنسان معنى وجوده ينطلق هائما لا يدرك لحياته معنى ولا حكمة، يستحيل عليه أن يؤمن «بالقيم» التى ترفعه عن عالم الحيوان، فينتكس إلى أسفل، فيصبح أضل من الحيوان: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وفى عالم الحيوان يكون الهم الأكبر – إلى جانب قضاء الشهوات – هو صراع البقاء؛ فتلتقى أنواع الحيوان المختلفة؛ لتتصارع وتكون الغلبة للأقوى، فيأكل القوى الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

أما فى عالم «الإنسان» فقد جعل الله للحياة هدفا آخر، ومعيارًا آخر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصراع الذى كتبه الله فى عالم الإنسان ليس صراع الغلبة من أجل الغلبة، ولكن من أجل إصلاح الأرض: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فإلى أى درك يهبط الإنسان حين يفقد معنى وجوده، ويتعامل بعضه مع بعض على مستوى الحيوان؟ وهو فاعل ذلك لا محالة إذا هبط عن الإيمان بما لا تدركه الحواس، ففقد الإيمان بالله واليوم الآخر.

إن الإيمان بالله وحده بلا شريك هو حق الله على العباد كما قال رسول الله ﷺ: «قال: أتدرون ما حق الله على العباد؟ حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»(١).

والحق أن الجهل بالسنن الربانية فإنه يجعل الناس فى غفلة عن حقيقة مذكورة فى كتاب الله فى أكثر من سورة، وهى أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل التمكين فى الحياة الدنيا خاصًا بفريق من الناس دون فريق، بل قال سبحانه: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

فالدنيا كما قال رسول الله ﷺ لا تساوى عند الله جناح بعوضة؛ لذلك يعطى الكافر منها بقدر ما يجتهد فى الحصول عليها: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥].

والدنيا – من ناحية أخرى – هى محل الابتلاء الذى خلق الإنسان من أجل أن يخوضه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

فلو أعطاها الله لفريق من البشر دون فريق، لم يعد للابتلاء معنى .. إنما يكون له معنى حين تتاح للبشر جميعا، ثم يختبر الناس: أيهم تفتنه الحياة الدنيا فتشغله عن ربه، وعن اليوم الآخر، وأيهم يأخذ قسطه من متاع الأرض وهو عابد لربه، ملتزم بأوامره، ومن ثم فإن التمكين فى ذاته يمكن أن يتم للمؤمنين وللكافرين سواء – إذا اتخذوا الأسباب – دون أن يتعلق ذلك بالإيمان، أو الكفر .. ومع ذلك فهناك فروق يغفلها الناس حين تصيبهم سطحية التفكير، وغلبة الشهوات، والغفلة عن الآخرة.

يقول الله تعالى عن الكفار والمعاندين: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

---

(١) أخرجه مسلم .

ويقول فى موضع آخر: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فأبواب التمكين المادى مفتوحة كلها – أو يمكن أن تفتح كلها – للكفار المعاندين. ولكن باب البركة لا يفتح عليهم؛ لأن الله اختص به المؤمنين، فلا يناله الكفار ولو فتح عليهم الرخاء المادى، الذى يظنه أصحاب الشهوات غاية الغايات فى الحياة الدنيا .. ومن أراد مثالا فلينظر إلى الغرب اليوم – بكل ما فيه من تقدم علمى ومادى وتكنولوجى وحربى – ولينظر إلى ما يعانيه الناس فيه من القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة، واللهث الدائم وراء تحقيق الشهوات .. دون بركة فى الوقت والمال ولا الأسرة ولا الذرية، ولا المعانى التى تليق بالإنسان، ولا الطمأنينة كذلك، فإنها وقف على المؤمنين الذين يذكرون الله: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا وذاك فضلا عن كون هذا التمكين – الذى يتاح للكفار فى الأرض للاستدراج – موقوت مهما طال: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢] .

وهذا كله فى أمور الحياة، أما الآخرة فلها شأن آخر .. ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهى خالصة للذين آمنوا: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فأما الذين لا يؤمنون بها، ويقولون: دعونا من ذكرها، وحدثونا عن الحياة الدنيا .. فما أصبرهم على النار !. كلا، لا تستوى حياة الإنسان بالكفر والإيمان فى الحياة الدنيا، ولا الآخرة.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وما أضيق أفق الإنسان، وما أضل تصوراته حين يحصر اهتمامه وإيمانه بالحياة الدنيا وحدها، منقطعة عن الآخرة. وما أوسع أفقه، وما أصوب تصوراته حين يؤمن بالآخرة، ويضع الحياة الدنيا فى وضعها الصحيح وحجمها الحقيقى .

المبحث الخامس
المفهوم الشامل للإيمان

نعنى بالعقيدة؛ الإيمان بأركانه الستة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم بإسناده عن أبى هريرة ﷺ قال: رسول الله ﷺ :

« ... قال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله»[١] .

وفى حديث عمر ﷺ الذى أخرجه مسلم مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: « قال فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[٢] .

والعقيدة لغة فعيلة من عقد بمعنى معقودة (بمعنى اسم المفعول) عقد الحبل والبيع والعهد : يعقده: شده والعقد: العهد[٣] . فكأن العقيدة هى العهد المشدود والعروة الوثقى، وذلك لاستقرارها فى القلب، ورسوخها فى الأعماق[٤] .

فأولا الشهادتان: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» هما القاعدة الأساسية الأولى التى يقوم عليها صرح هذا الدين، وهما الطريق الوحيد الذى يوصل سالكه إلى دار السلام ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وهذه القاعدة – توحيد الله فى الألوهية – هى الركن الأساسى بل الأساس المكين الذى قام عليه كل دين نزل من عند الله .

---

(١) صحيح مسلم : ج١، ص ٣١، ط صبيح .
(٢) انظر شرح الأربعين النووية، ط قطر، ص ١٩ .
(٣) القاموس المحيط باب الدال فصل العين، ج١، ص ٣١٥ .
(٤) عبد الله عزام: العقيدة وأثرها فى بناء الجيل، عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٨٤، ص ٢٣ .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وهذه القاعدة "لا إله إلا الله" تعنى فى أبسط صورها أن هذا الكون منبثق عن إرادة هذا الإله الواحد. بأمره يسير، وبقدره تدبر أموره . وكل خلق من مخلوقاته أمره بيده، لا يخرج عن إرادتـه، ولا يند عن مشيئتـه ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طـه: ٥٠]. ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعـلى: ١-٣]. ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]. هذه نقطة لا ينبغى أن تغيب عن بالنا. إن كل شىء فى الكون صنع بيد الله العزيز الحكيم ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

وأما النقطة الثانية فهى: أن كل مخلوق فى هذا الكـون جنـدى مـن جنـود الله، يؤمر فيطيع ويدعى فيلبى .

﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. فالسماوات والأرض وما فيهن جنود مطيعة لرب العالمين.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الـروم: ٢٦]. أى مطيعـون خاشعون .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١].

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولذا فالجبال والماء والأرض والسماء كلها مخلوقات لله، وجند من جنوده ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

فلقد وجه رب العالمين الأمر إلى النار فأطاعت ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ونادى الجبال فأصغت: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴾ [سبأ: ١٠].

وأما الثالثة: فقد يسخر الله بعض جنوده لطاعة عبد من عبيده ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ﴾ [سبأ: ١٢-١٣]. ويقول لموسى عليه السلام: ﴿ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ﴿ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وأما المسألة الرابعة: فكل كائن من مخلوقات الله له منهاج ربانى يسير عليه لا يستطيع الخروج عنه قيد أنملة ولا شعرة، فالشمس لا يمكنها أن تخرج عن المدار الذى أمرها الله أن تدور فيه ولو خرجت زاوية واحدة عن محورها لتحطمت وحطمت الكثير، وكذلك القمر، والأرض، وهذا هو ناموس الله فى هذا الكون لكل خلق عدا الثقلين الإنس والجن.

وقد تتجلى مظاهر هذه العبودية أحيانًا لعبد من عبيد الله بإرادة الحاكم الآمر. ومن ذلك ما يحدثنا الإمام أبو الحسين مسلم بإسناده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم علىَّ قبل أن أبعث، وإنى لأعرفه الآن»[1].

هذا وقد يكشف الله طرفًا من هذه العبودية لغير الأنبياء فقد تتجلى بإسفار ووضوح لعباده الصالحين، ومن ذلك ما يروى أنه: لما بعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه العلاء بن الحضرمى فى حرب المرتدين إلى البحرين فسلكوا مفازة، وعطشوا عطشًا شديدًا، حتى خافوا الهلاك، فنزل وصلى ركعتين، ثم قال: يا حليم، يا عليم، يا على،

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذرى، تحقيق : الألبانى ٢/ ١٦٣ .

يا عظيم اسقنا! فجاءت سحابة كأنها جناح طائر، فقعقعت عليهم وأمطرت، حتى ملأوا الآنية وسقوا الركاب، ثم انطلقنا حتى أتينا دارين، والبحر بيننا وبينهم، وفى رواية أتينا على خليج من البحر ما خيض فيه قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعد، فلم نجد سفنًا، وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم، يا عليم، يا على، يا عظيم، أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة ﷺ : فمشينا على الماء، فو الله ما ابتل لنا قدم، ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف، وفى هذا يقول هفيف بن المنذر:

ألم تر أن الله ذلل بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعانا الذى شق البحار فجاءنا ... بأعظم ممن فلق البحار الأوائل[1]

ثانيا: وأما الإيمان بالملائكة فهو جزء من عقيدتنا ويخبرنا القرآن أن الملائكة موكلون بحفظ البشر وحمايتهم، وهم مكلفون بإحصاء أعمالهم وتسجيلها ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤].

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١٠-١١].

فالملائكة حفظة للبشر، يحصون عليهم أعمالهم، ويقدمون كتب أعمالهم إلى رب العالمين، ومنهم موكل بقبض أرواح البشر وهم كذلك يستغفرون للذين آمنوا، ويحضرون مجالس الرحمة والذكر والتلاوة كما فى الأحاديث الصحيحة، وهناك ملكان حافظان يلازمان الإنسان حيث حل وأينما سار لا يفارقانه أبدًا إلا فى بعض المواطن كالخلاء مثلا.

(١) انظر : أسباب سعادة المسلمين وشقائهم فى ضوء الكتاب والسنة للكاندهولى، ص ٦٠ .

ثالثا: وأما الإيمان بالكتب السماوية فهو جزء من العقيدة والإيمان بصحف إبراهيم والتوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام والإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام والزبور على سيدنا داود عليه السلام والقرآن على سيدنا محمد ﷺ وعليهم الصلاة والسلام أجمعين .

رابعًا: وأما الإيمان بالرسل: فالعقيدة الإسلامية تعتبر أن الإيمان بكل رسول مرسل هو جزء منها بحيث يعتبر من يجحد رسالة أى رسول خارجاً من إطار هذا الدين ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فمن كفر بأى رسول فقد كفر بأصل الرسالات وكفر القرآن، لأنه صرح بأسماء الرسل فى النصوص القطعية الدلالة والثبوت .

خامسًا: والإيمان باليوم الآخر، فهو كذلك من القواعد المكينة فى هذا الدين ويكون الأساس فى كل دين نزل من عند رب العالمين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [البقرة: ٦٢].

فالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح هذه القاعدة بأركانها الثلاثة هى عماد كل دين.

وهذا الدين الذى بعث به محمد ﷺ يعتبر أن الحياة جسر إلى الآخرة وأن الإنسان يمر بأطوار ومراحل فمن رحم الأم إلى هذه الأرض إلى القبر فالبعث، فالحشر، فالميزان، فالصراط ثم إلى جحيم مستعر أو إلى نعيم مستقر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والحق أن الإيمان بالآخرة هو صمام الأمان فى هذه الأرض وهو الضابط الوثيق الذى يحرس الأخلاق والحارس الأمين الذى يضمن تنفيذ الشريعة فى هذه الدنيا. فهو الذى يمنع لحظة العين أن تمتد إلى محرم ويمنع النفس أن تهجس بهواجس

الشر ويردع الفم أن يهمس ولو بكلمة واحدة لا يرضاها ربه؛ لأنها كلها مسجلة معروضة محصية عليه؛ أنفاسه وكلماته وحركاته .

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

سادسًا: وأما القدر فهو المحرك الأصيل للنفس البشرية، وهو الدافع الحقيقى للعمل فى ميدان الحياة، وأول ما يطلعنا من نصوص القدر الرزق والأجل. فقد ذكرت فى أكثر من موضع فى الكتاب العزيز مع إقرار أنها ثابتة محددة، ولا يغادر المرء هذه الأرض قبل أن ينال كل رزقه ويستنفد جميع أجله. فلن يموت إلا بقدر، ولن يستطيع أحد أن ينقص من رزقه قرشًا واحدًا مهما علا جاهه، وعظم سلطانه.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

« واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1] .

والأجل المحدود والرزق المحدود مع العلم القطعى أن الله عز وجل بيده ملكوت كل شىء، وإليه يرجع الأمر كله، وله من فى السماوات ومن فى الأرض، وأنه إليه ترجع الأمور.

هذه الأمور كلها كانت تدفع بأحدهم فى أتون المعركة تاركًا وراءه أهله دون معين ولا كفيل إلا الله، وحسبك كلمة أبى بكر يوم تبوك إذ جاء إلى الرسول ﷺ بجميع ماله فقال ﷺ : ماذا تركت لأهلك؟ فقال:« تركت لهم الله ورسوله».

ولذا فإننا نرى أن آيات العقيدة جاءت منبثة فى معرض آيات القتال والجهاد خاصة الآيات التى تقرر أن الحياة والموت بيد الله ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

---

(١) حديث حسن صحيح رواه الترمذى عن عبد الله بن عباس مرفوعا .

إن استقرار هذه العقيدة فى أعماق النفس يجعلها عزيزة فلا تذل، تقف أمام كل قوى الأرض لا ترهب سلطانا، ولا تستخذى أمام صولة الملك، وإغراء المال، هذه العقيدة صاحبها من أوحال الأرض ومستنقع الطين . فيقف فى المرتقى السامى ينظر إلى الأرض من علٍ مع التواضع، وبالعزة مع المحبة والتضامن دون استطالة ولا بغى على الناس، يود لو يرفعهم إلى هذا المستوى الذى رفعه الله إليه .

بهذه العقيدة أضحى الرعيل الأول من الصحب الكرام يعيشون بحسهم وأرواحهم فى الآخرة مع أجسادهم تدب على هذه الأرض، هم يتحركون فوق هذه المعمورة مع أن أنظارهم مشدودة بقوة إلى الآخرة، إلى الجنة.

روى الطبرانى بإسناده عن الحارث بن مالك الأنصارى ﷺ أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: «انظر ما تقول، فإن لكل شىء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟« فقال: عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى. وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا. وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاعون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالزم»[1] ثلاثًا، ولقد ذكر هذا الصحابى الذى استحق شهادة رسول الله ﷺ له بالمعرفة، ما يصور مشاعره، ويُنبئ بما وراء هذه المشاعر من عمل وحركة. فالذى كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزًا، وينظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتضاعون فيها، لا يتنهى إلى مجرد النظر، إنما هو يعيش ويعمل ويتحرك فى ظل هذه المشاعر القوية المسيطرة التى تصبغ كل حركة وتؤثر فيها. وذلك إلى جانب ما أسهر ليله وأدام نهاره، وكأنما هو ناظر إلى عرش ربه بارزًا.

هذا مثل من كثير يبين كيف ترجمت العقيدة فى نفوس الصحابة، وتجسدت فى أناس من لحم ودم، يدبون على الأرض فيتحرك بحركتهم القرآن.

---

(١) فى ظلال القرآن، ج٩، ص ٢٤١ .

والآن، دعنا نستمع إلى الإمام أحمد[1] وقد دخل عليه رجل فقال: عظني يا إمام. فقال له: إن كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا؟ وإن كانت النار حقا فالمعصية لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقا فالجمع لماذا؟ وإن كان كل شيء بقضاء الله وقدره فالخوف لماذا؟ وإن كان سؤال منكر ونكير حقا فالأنس لماذا؟ فخرج الرجل من عند الإمام، وعاهد نفسه أن يرضى بقضاء الله وقدره .

(٢) محمد أمين المصرى: إملاءات فى العقيدة، دمشق، د.ت، ص ١٧ .

المبحث السادس
حقيقة الإيمان

ما مفهوم الإيمان الذى نعنيه فى هذا الكتاب، ونحاول تجلية أثره فى النفس والحياة؟

الإجابة عن هذا السؤال لا تتضح إلا إذا عرفنا مفهوم الإيمان، ومتعلق الإيمان، أما مفهوم الإيمان ومعناه فإنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ [البقرة: ٨-٩].

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتاد أن يقوم بها المؤمنون، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات، وأعمال الخير، وشعائر التعبد، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان، ولم يؤمنوا ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]. وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما عملوه من بعد ما تبين لهم الحق: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إن الإيمان فى حقيقته ليس مجرد عمل لسانى ولا عمل بدنى، ولا عمل ذهنى، إن الإيمان فى حقيقته عمل نفسى يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان.

فلابد من إدراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه فى الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحى الإلهى المعصوم.

ولابد أن يبلغ هـذا الإدراك العقـلى حد الجزم الموقن، واليقين الجازم، الذى لا يزلزله شك ولا شبهة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبى، وانقياد إرادى، يتمثل فى الخضوع لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]. ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولابد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية؛ تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية، والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

والقرآن الكريم يعرض دائمًا الإيمان فى أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون، من الكفرة والمنافقين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾ [المؤمنون: ١-٥].

وقال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

يقول أحد العلماء فى تفسير هذه الآية:

هذه العناصر والمقومات التى ذكرتها الآيات هى التى تكوِّن « الإيمان الحق»، إن شئت قلت «العقيدة الحقة» وإذا فُقد بعض هذه العناصر فإن ما بقى منها لا يستحق أن يسمى « إيمانًا» أو عقيدة .

يمكن أن تسمى «فكرة» أو «نظرية» أو «رأيًا» أو أى عنوان من هذه العناوين، أما الإيمان الحق فهو الذى تشرق شمسه على جوانب النفس كلها، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء، والحرارة والحياة. أجل، عندما تنْفُذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل، وتحرك القلب، واتجهت الإرادة، استجابت الجوارح، واندفعت للعمل، استجابت الرعية للراعى المطاع.

ولنا أن نتأمل ما قاله الأستاذ أحمد أمين – رحمه الله – مفرقًا بين الرأى والعقيدة[1]، قال: « فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقده، وإذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى فى دمك، وسرى فى مخ عظامك، وتغلغل فى أعماق قلبك».

ذو الرأى فيلسوف، يقول: « إنى أرى صوابًا قد يكون فى الواقع باطلاً، وهذا ما قمت عليه اليوم، وقد أقوم على عكسه غدًا، وقد أكون مخطئًا فيه وقد أكون مصيبًا».

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هى الحق، لا محالة هى الحق اليوم، وهى الحق غدًا، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأى فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة ورزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب، وذو العقيدة حار متحمس، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته.

ذو الرأى سهل أن يتحول ويتحور، هو عند الدليل، أو عند المصلحة تظهر فى شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له قول رسول الله ﷺ: «لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته».

---

(١) أحمد أمين: فى كتاب فيض الخاطر، ج١ .

الرأى جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأى كهف مظلم حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأى مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه، والعقيدة نجم يتألق.

الرأى يخلق المصاعب، ويضع العقبات، ويصغى لأمانى الجسد ويثير الشبهات ويبعث على التردد. والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث بحزم اليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح.

محتوى الإيمان الذى نعنيه :

ولا يكفى أن نعرف حد الإيمان ومفهومه حتى نعرف محتواه ومتعلقه، فلابد أن تعرف أى إيمان نعنى فى دراستنا هذه؟

إنه الإيمان الذى يتجسد فى خاتمة العقائد السماوية، عقيدة الإسلام، كما بينها القرآن الكريم، وهدى الرسول العظيم، متمثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

هذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام، إنها العقيدة المصفاة، التى بعث بها أنبياء الله جميعًا، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، إنها الحقائق الخالدة التى لا تتطور ولا تتغير، عن الله وعن صلته بهذا العالم .. ما يبصر منه وما لا يبصر، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التى عملها آدم لنبيه وأعلنها نوح فى قومه، ودعا إليها هود وصالح عادًا وثمودًا، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى فى توراته، وداود فى زبوره وعيسى فى إنجيله .

كل ما فعله الإسلام، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفاها من الأجسام الغريبة، التى أدخلتها العصور عليها، فكدرت صفاءها، وأفسدت توحيدها بالشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم، ونسبة ما فى البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علوا كبيرًا، وشوهت

نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضًا جديدًا، يليق بالرسالة التى اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية؛ وأن تكون غاية لكل البشر؛ إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور، ونقت فكرة النبوة الرسالة مما عراها من سوء التصور، ونقت الجزاء الأخروى مما دخل عليه من أوهام الجاهلين؛ وتحريف المغالين وانتحال المبطلين؛ ودجل المشعوذين.

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هى الإيمان بالله؛ والإيمان بالنبوات؛ والإيمان بالآخرة. ويمكن أن نفصل القول فى الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده؛ والإيمان بوحدانيته؛ والإيمان بكماله.

وجود الله تعالى :

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه سماها أحدهم« العلة الأولى» وسماها غيره « العقل الأول» وسماها ثالث «المحرك الأول» وسماها القرآن العربى المبين، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال «الله».

هذه القوة العليا، وبعبارة أخرى: هذا الإله العظيم ليس فى استطاعة العقل البشرى إدراك كنهه ولا معرفة حقيقته، كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته، وعن كنه النفس، وحقيقة الحياة، وكثير من حقائق الكون المادية؟ وما عرف إلا آثارها فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلى الكبير؟ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة، ولا إله شعب خاص، ولا إله إقليم معين، وإنما هو «رب العالمين» «رب السماوات والأرض» «رب المشرق والمغرب» ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولنستمع إلى ما نصه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون؛ يتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة منها:

١- يلفت العقول والأذهان إلى ما فى الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعًا حكيمًا. وهو قانون بديهى عند العقل الذى يؤمن بمبدأ «السببية» إيمانًا طبيعيًا لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، هذا الخلق لابد له من خالق، وهذا النظام لابد له من منظم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]. ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

٢- ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التى بها يدرك المرء إدراكًا مباشرًا أن له ربًا وإلهًا عظيمًا يكلؤه ويرعاه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وإذا اختفت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللهو فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء، وسرعان ما يذوب الطلاء، وينكشف المعدن الأصيل فى النفوس البشرية، فتعود إلى ربها داعية متضرعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ

مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومدبره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلنًا «الله»: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]. ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنسانى على أن الإيمان بالله وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار، ففى نوح يقول: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وفى هود يقول: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]. وفى صالح وقومه ثمود يقول : ﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل: ٥٢-٥٣].

وفى رسل الله جميعًا يقول تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

إنما الله إلـه واحـد:

وهـو تعـالى إلـه واحد ليس له شريك، ولا له مثيل فى ذاتـه أو صفاتـه أو أفعالـه: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وكل ما فى الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل مدبر، أو أكثر من يد تنظم، لاختل نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

هو تعالى واحد فى ربوبيته، فهو رب السماوات والأرض، ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شىء فقدره تقديرًا، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخالق أو الرزاق أو المدبر لذرة فى السماء أو الأرض ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١١].

وهو تعالى واحد فى ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا فى رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه. والبشر جميعًا – سواء أكانوا أنبياء وصديقين أم ملوكًا وسلاطين – عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فمن ألَّه واحدًا منهم، أو خشع له وحنى رأسه، فقد جاوز به قدره، ونزل بقدر نفسه.

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة، وإلى أهل الكتاب خاصة: ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل فى هذه الكلمة العظيمة التى عرفت لدى المسلمين بكلمة «التوحيد» وكلمة «الإخلاص»وكلمة «التقوى» وهى: « لا إله إلا الله».

كانت «لا إله إلا الله» إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله: سواء كانت شجرًا، أم حجرًا، أم بشرًا .

وكانت «لا إله إلا الله» نداءً عالميًا لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله.

وكانت «لا إله إلا الله» عنوان منهج جديد، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف، إنه منهج الله الذى لا يعنو الوجود إلا له ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه.

وكانت «لا إله إلا الله» إيذانًا بمولد مجتمع جديد، يغاير مجتمعات الجاهلية، مجتمع متميز بعقيدته متميز بنظامه، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية؛ لأنه ينتمى إلى الله وحده، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبابرتها ما تنطوى عليه دعوة «لا إله إلا الله» من تقويض عروشهم، والقضاء على جبروتهم وطغيانهم، وإعانة المستضعفين عليهم، فلم يألوا جهدًا فى حربها، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجًا.

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسًا منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة فى الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون. لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إلهًا ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محلاً حل فيه الإله!. ولم يعد بشر يسجد لبشر أو يقبل الأرض بين يدى بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة وأصل الحرية الحقة، وأصل الكرامة الحقة، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعى ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكمًا من دون الله.

قال أبو موسى الأشعرى: انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين، وقد قال عمرو وعمارة – وهما مندوبا مشركى قريش بمكة إلى النجاشى - إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده القسيسون والرهبان:

اسجدوا للملك، فقال جعفر بن أبى طالب: لا نسجد إلا لله.

فرغم أنهم مضطهدون ومهاجرون، وغرباء لاجئون، وهم فى أرض هذا الملك وفى حوزته، أبوا أن يفرطوا فى توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعارًا لكل مسلم" لا نسجد إلا لله".

كمال الله تعالى: ولابد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزه عن كل نقص: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: ٢-٤]. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

دلل على ذلك: هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه.

فهو سبحانه العليم الذى لا يخفى عليه شىء: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو العزيز الفعال لما يريد، الذى لا يغلبه شىء، ولا يقهر إرادته شىء ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهو القدير الذى لا يعجزه شىء، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويحيى العظام وهى رميم، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون عليه ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئا عبثا، ولا يترك شيئا سدى، ولا يفعل فعلاً، أو يشرع شرعًا إلا لحكمة، عرفها من عرفها، وجهلها ومن جهلها، وهذا ما شهد به الملائكة فى الملأ الأعلى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه، وأولو الألباب من عباده: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه، ووسعت رحمته كل شىء، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. وقال: ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقد بدأ سور القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء فى قلوب عباده وإن تورطوا فى الذنوب والآثام: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

الكون كله – عاليه ودانيه – صامته وناطقه، أحياؤه وجماداته – كله خاضع لأمر الله، منقاد لقانون الله، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن تسبيح الكون لله وسجوده له، حقيقة كبيرة، عميت عنها أعين، وصمت عنها آذان، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم، ويسمعون بآذان قلوبهم، فإذا هم يرون الوجود كله محرابا، والعوالم كلها ساجدة خاشعة، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الحديد: ١-٣].

الإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم، وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولابد، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخر له ما فى الكون جميعا، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له زاده الروحى، كما هيأ له زاده المادى، وأن ينزل الوحى من السماء ليحيى به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيا به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه؛ تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة؛ وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة فى عكس هذا. كانت الحكمة فى إرسال رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى دين الله ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد.

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولا عنه يبلغهم بأمره ونهيه، فيقول نوح: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣].

ويقول القرآن ردًا على المشركين الجاحدين برسالة محمد ﷺ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢].

والهداية بالوحى هى أعلى مراتب الهداية التى منحها الله للإنسان، فهناك الهداية الفطرية الكونية، وهى التى عبر عنها أحد العلماء حين قيل له: متى عقلت؟ قال: منذ نزلت من بطن أمى، جعت فالتقمت الثدى وتألمت فبكيت !!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهى التى عبر عنها بالوحى فى شأن النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨]. بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله: فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم،

وفى الكواكب التى يسير كل منها فى مداره الذى لا يتعداه، وفق قانون لا يتخطاه ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]. فهى هداية عامة للمخلوقات جميعها، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى عليه السلام لفرعون قال: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى: ١-٣].

والمرتبة الثانية: للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والتذوق، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن، وهذه المرتبة أرقى من الأولى، ففيها نوع من الانتباه، وقدر من الإدراك وإن كانت لا تسلم من الخطأ، كما نرى فى السراب الذى يحسبه الرائى ماء، وفى الظن الذى يظنه ساكنا وهو متحرك.

والمرتبة الثالثة: هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيرًا ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط، وبذلك يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، والعقل فى عملياته العليا من خصائص الإنسان الذى تفرد بها عن الحيوان.

والمرتبة الرابعة: هى هداية الوحى، وهى التى تصحح خطأ العقل، وتنفى وهم الحواس، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

الإيمان بالآخرة:

هذا ملخص قصة الحياة والإنسان، أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء بعد هذا، أو كما عبر القرآن عن قوم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

إذن فما سر هذا الشعور الخفى، والوجدان الكامن الذى يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن، بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة؟ وما سر الشعور بأن الإنسان فى هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة؟

هذا الشعور الذى رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا - استجابة له - جثث الموتى، وبنوا الأهرام؛ ولذا ظهرت آثاره فى أمم شتى بأساليب مختلفة.

يقول الشيخ محمد عبده: «اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ونبيين وفلاسفة - إلا قليلا لا يقام لهم وزن - على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء - أى زوال مطلق - وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازعتهم فى تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون فيه، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ فى أحياء البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال: إنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها. ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الأجسام المرئية .. » .

«هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة والمنبعث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد صلة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع. فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا - وإن شذ أناس عنه أنكروا ذلك أو شكوا فيه - كذلك قد ألهمت العقول، وشعرت النفوس، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد، كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر، وإن لم يدرك كنهه.

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طريق غير محصورة، شيقة إلى الذات غير محدودة، ولا واقعة عند غاية، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات».

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل، وبغى فيها من بغى، وتجبر من تجبر، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابا، بل تستر واختفى فأفلت ونجا؟!.

وفى الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وضحوا جاهدين، ولم ينالوا جزاء ما قدموا، إما أنهم كانوا جنودا مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير. وكم من قوم دعوا إلى الحق واستمسكوا به ودافعوا عنه، فوقف الظالمون فى طريقهم، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا، وسقطوا صرعى فى سبيله، وأعداؤهم الطغاة فى أمن وعافية، بل فى ترف ونعيم.

ألا يسيغ العقل – الذى يؤمن بعد بالإله الواحد – بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته؟ هذا ما تنطق به الحكم السارية فى كل ذرة فى السماوات والأرض: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠]. ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٧ -٢٨].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١- ٢٢].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم: ٣١] .

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

بهذا الخلق الأول يستدل عليه بمظاهر قدرة الله فى عالم النبات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧].
ويستدل القرآن على إمكان البعث بخلق الأجرام العظيمة فى هذا الكون من السماوات والأرض، وهى – لمن تأمل – أكبر من خلق الناس وأعظم: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

المبحث السابع
علاقة الإيمان بالعمل

معرفة الله والخضوع له، والإعداد للقائه والرهب من عقابه، لُباب الدين وروح شرائعه. نعم فى تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة. لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة أو هى أعمال غايتها وجه الله، فإذا انهارت الدعامة أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز، وقيمتها النفسية.

الدين قبل كل شىء: «شعور بوجود الله، واعتراف بحقه فى حكم عباده، ووضع المبادئ التى ينطلقون منها، والحدود التى ينتهون إليها».

ومقتضى هذا الشعور الباطن، والاعتراف الظاهر، أن نفعل ما يوصينا الله به، لا على أنه خير فقط، بل على أنه «انقياد لله – وقيام بحقه .. إلى جانب ما فيه من خير ذاتى»..

إن الوجودى قد يرى الصدق فضيلة فى المعاملات التجارية وغيرها. ولكنه لا يعبد الله، حين يصدق مع غيره، فهو لا يعرف الله، ولا يؤمل فيما عنده !!..

أما المؤمن، فالصدق عنده طاعة لله الذى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

فهو يصدق أولا إيمانًا بالله، ثم هو يرتفع بإيمانه هذا على فضيلة الصدق ..

إن الأعمال الصالحة كلها، نفسية كانت أو اجتماعية، عندما تكون جزءًا من تعاليم الدين، أو جزءًا من سلوك المؤمنين، تأخذ طريقها فى الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوى، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل، وتكون تقواه جل شأنه إحساسًا دائمًا مصاحبًا .

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة أو لا تكون، ثم يرون فى الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الحق والفضيلة. مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة، بل ربما لم يفكر صاحبها فى الله لحظة.

وهذا الفريق من الناس قسم الدين إلى قسمين: فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانبا وازور عنه. وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروجه أكثر من الحديث عن قيمته!!

وقد علمت أن أى عمل أمر الله به، فإنما الجدوى من فعله ابتداءً طاعة الله والقيام بحقه[1] . أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة له، وإن صلحت به إلى حيث بعض شئون الدنيا .

إن الإيمان بالله ليس نافلة فقط فى المجتمع المؤمن. إن تسبيحه وتحميده جل جلاله، يجب أن يكون شغلا للناس، وشارة لحياتهم بالغدو والآصال.

وقد يضحك بعضهم من الحديث عن الآخرة، والجنة والنار، ويظن ذلك كلامًا فات أوانه، أو كلامًا يتهامس به بعض الوعاظ فى مواكب الموت .

والحق أن الدين يذوب ويتلاشى يوم يكون الحديث عن الآخرة مجونًا أو لغوًا.

إن قوافل الأحياء يجب أن تعى بلباقة وجد أن عقيدة الجزاء الأخير ليست هزلاً، وأن البعد بنشاط الحياة عن الإيمان بالله واليوم الآخر بُعد عن الصراط المستقيم، وجرى وراء سراب خادع .

ونحن المسلمين يجب أن نشوب نشاطنا كله بمعالم هذا الإيمان بالحق، وألا تجرفنا تيارات الحضارة المادية التى تسود الشرق والغرب، تلك الحضارة التى ذهلت عن الله، وتجاهلت وحيه، وآثرت أن تحيا وفق هواها، وأن تأخذ من دينه ما لا يصادم هذه الأهواء .. ثم تطرح جانبًا أهم شعب الإيمان . والأمر بحاجة إلى أولى الألباب يتداركونه بصدق الفهم، ولطف العلاج .

---

(١) محمد غزالى: عقيدة المسلم، القاهرة، دار الدعوة، ١٩٩٠ م ، ص ١٣٩ .

وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره، إن الإيمان أعظم الفضائل فى هذا الوجود، وهو عنصر غال، ما دخل فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه .

بيد أن الإيمان الذى يستحق هذه النعوت له نواح عديدة، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة، وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق .

ويجب أن ننصف الإسلام، فنعلم أنه دين أعلى قدر الإنسان، ورفع شأن الحياة، لا بعبادتها والتفانى فيها، كما يفعل الجهال، بل بضبط رسالة الإنسان فيها، وحسن إفادته منها.

الإنسان – فى تصوير الإسلام – عبد لله وحده، يعرفه ويتقيه! سيد لهذا الكون – يرتفقه، ويستخدمه، ويستغل قواه. أخ لنظرائه من الناس يتعاون معهم على الخير، ويعاشرهم بقانون العدل والرحمة.

صلة الإيمان كصلة الخلق بالسلوك:

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم، وأيقن باليوم الآخر، وصدق ما جاء به المرسلون، دفعه ذلك – لا محالة – إلى استرضاء ربه، والاستعداد للقائه، والاستقامة على صراطه. كما أن الشجاع فى ميادين الخطر يقدم، والكريم فى مواطن البذل ينفق، والصادق فى أداء الحديث يتحرى الحق .. إلخ. وعسير – بل مستحيل – أن يهبط الإنسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى، أو أن يفهم من كتاب الله ورسوله ﷺ ما يغاير ذلك .

بيد أن أعداء الإسلام – وقد عجزوا عن هزيمته فى ساحات القتال – لم تعيهم الحيل لسحقه فى عقر داره، فدسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها، وأمانى لا عمل معها، وفى ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودى والقبطى يتعاشرون سنين عددا، فلا تستطيع أن تميز أحدهم عن الآخر فى شىء، الكل لا يدخل مسجدا، ولا يقيم فريضة، ولا يحترم لله شعيرة، والكل يشرب الخمر، ويأكل الربا، ويفجر بالأعراض. وغاية ما بينهم من فوارق، أن اليهودى يقدس يوم السبت، وقد يذهب النصرانى إلى كنيسته خلسة. أما ذلك المسلم المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سجل فى شهادة الميلاد فحسب.

إن الله – عز وجل – جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء وجعل السباق فى إحسانه سر الخليقة ودعامة الحساب ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

وما من آية فى كتاب الله ذكرت الإيمان مجردًا، بل عطفت عليه عمل الصالحات، أو تقوى الله، أو الإسلام له، بل أصبحت صلة العمل بالإيمان آصرة لا يعروها وَهْنٌ. فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال، جعل الإيمان والعمل جميعها فى كفة، وجعل الكفر فى الكفة الأخرى. ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ﴾ [غافر: ٥٨].

وكثيرًا ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد: ١١- ١٦]. بل إن العلامة التى ينصبها القرآن دليلا على فراغ النفس من العقيدة، وخراب القلب من الإيمان، هى فى النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون: ١ -٣].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ثم ما الذى يوزن فى الدار الآخرة ؟ أليست الأعمال التى تميل بالإنسان إلى النعيم أو الجحيم أو الدعاوى والمزاعم؟ ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨ -٩].

إننا نعرف تاريخ أمم هلكت بسوء عملها، ونعرف أن الله نقم على قوم لوط – مثلاً – لارتكابهم الفاحشة، وعلى قوم شعيب – مثلاً – لبخسهم المكيال والميزان، وقد عرفنا مصائر أولئك الفاسقين.

فهل أمتنا – وحدها – هي التي تريد أن ترتكب السيئات، دون حذر أو وجل؟ ليس الإسلام بدعًا من الشرائع السابقة، فيوجب الإيمان دون عمل .

بل إن القرآن الكريم ليقص علينا عبر السابقين لنتعظ منها، ثم لنسمع قول الله بعد ذلك: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

هكذا نُمتحن وتُراقب تصرفاتنا، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعًا ثم ينظر وفاءنا بما حملنا من أعباء !.

وقد خاطب الله أبناء آدم – قاطبة – بهذه الحقيقة السافرة، وأفهمهم – في جلاء وقوة – أن نجاتهم في الصلاح والتقوى، لا في النفاق والدعوى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

وعندما اهتدى أولو الألباب إلى الحق، وأعلنوا إيمانهم وهتفوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعندما تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعندما تطلعوا إلى النصر والتمكين في الأرض، والفوز والرضوان في الآخرة ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

مع هذه الحرارة في الدعاء، والإخلاص في التوجه، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده وأن الكلام – فحسب – لا يروج، وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهاد

وتضحيات وتكاليف: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة، يزخر بها القرآن وتستفيض بها السنة، وتقرر الحق فى نصابه، وترسم لكل مسلم غايته، وتخط له مكانته، وتقرع الآذان بذلكم الأمر الحاسم:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

المبحث الثامن
ثمرات الإيمان الصحيح

ثمار الإيمان القلبى:

وإذا عرف الإنسان ربه عن طريق العقل والقلب؛ أثمرت له هذه المعرفة ثماراً يانعة، وتركت فى نفسه آثارًا طيبة، ووجهت سلوكه وجهة الخير والحق والسمو والجمال.

وهذه الثمار نجمل بعضها فيما يلى:

أ- تحرر النفس من سيطرة الغير، وذلك لأن الإيمان يقتضى الإقرار بأن الله هو المحى، المميت، الخافض، الرافع، الضار، النافع.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٨]

إن الذى عوق البشرية عن النهوض، وحال بينها وبين الرقى هو الخضوع للاستبداد، سواء أكان هذا الاستبداد سياسيا للحكام والرؤساء، أم استبدادًا كهنوتيا لرجال الدين والكهنوت. وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة، قضى على هذا الأسر وأطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين التى لازمته قرونًا طوالاً.

ب- والإيمان يبعث فى النفس احتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد من أجل الحق، إذ إن الإيمان يوحى بأن واهب العمر هو الله، وأنه لا ينقص بالإقدام، ولا يزيد بالإحجام، فكم من إنسان يموت وهو على فراشه الوثير، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

جـ- والإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، وأن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾
[العنكبوت: ٦٠]

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾
[العنكبوت: ٦٢]

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص والشدة، والطمع، واتصف بفضيلة الجود، والبذل، والسخاء، والألفة، والعفة، وكان إنسانًا مأمول الخير مأمون الشر.

د- والطمأنينة أثر من آثار الإيمان: أى طمأنينة القلب، وسكينة النفس. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤].

وإذا اطمأن القلب، وسكنت النفس – شعر الإنسان ببرد الراحة، وحلاوة اليقين، واحتمل الأهوال بشجاعة، وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت، ورأى أن يد الله ممدودة إليه، وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة، فلا يتسرب إليه الجزع، ولا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

هـ- والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية، ويربطه بمثل أعلى، وهو الله مصدر الخير والبر والكمال.

وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات، ويستكبر على لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة فى النزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة، ومن ثم يتجه المرء تلقائيًا لخير نفسه، ولخير أمته، ولخير الناس جميعًا.

وهذا هو السر فى اقتران العمل الصالح بجميع شُعبه وفروعه بالإيمان، إذ إنه الأصل الذى تصدر عنه وتتفرع منه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. وإذا اهتدى القلب، فأى شىء من الخير يفوته؟!

و- والحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة. وتتمثل هذه الحياة فى ولاية الله للمؤمن، وهدايته له ونصره على أعدائه، وحفظه مما يثبت له، وأخذه بيده كلما عثر، أو زلت به قدم، فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادى، يكون عونا على قطع مرحلة الحياة فى يسر.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقد انتهى العالم إلى هذه الحقائق الإيمانية؛ ولا يتسع المجال لإثبات شهادات كبار العلماء، وتسجيل ما شاهدوه. ونكتفى هنا بتسجيل ما نشر بإحدى الصحف المصرية قالت الصحيفة تحت عنوان «العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية»:

عزاء وسلوانا لأولئك الذين تشبثوا بدينهم، ولم يتزعزع إيمانهم فى أحلك لحظات المدنية وأنصعها، أقصد تلك اللحظات التى يتشدق فيها دعاة النظريات العتيدة، وفى مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء « لداروين» بأن الدين بدعة، وبأن الإنسان يقف وحده فى هذا الكون، كما زعم « جوليان هاكسلى» جد الكاتب الفيلسوف البريطانى الكبير «الدوسى هاكسلى». إن علماء الأمراض العقلية، لا يجدون اليوم سلاحا أمضى، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله والتطلع إلى رحمة السماء .. والتشبث بالرعاية الإلهية .. والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه .. !

لقد بدأت التجربة فى مستشفى بولاية نيويورك، وهو مستشفى خاص بمرتكبى الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية. بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ، والعقاقير المسكنة

والمهدئة للأعصاب. وكانت النتيجة رائعة .. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم . بل فقدوا الأمل فيه انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء .. أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم، وهم مسلوبو الإرادة، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم، ويذرفون الدمع ندما، وكلهم أمل فى رحمة السماء ومغفرة الله.

واستسلم العلماء، ورفعوا أيديهم إلى السماء، يعترفون بضعفهم، ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان، وليس أبدًا إلى الإلحاد[1] .

من ثمرات التوحيد الخالص:

وإذا كان التوحيد حقيقة لا مراء فيها، توحيد ربوبية وتوحيد إلهية وتوحيد الله فى أسمائه وصفاته، مع الجزم أنه ليس كمثله شىء، فإن هذا التوحيد له ثمراته التى لا ينكرها إلا جاحد وأهم ثمراته هى:

١- الاطمئنان وشكر الواحد الأحد المنعم:

فالواحد الذى خلق الإنسان من تراب وجعله بشرا وأمده بالسمع والبصر والأفئدة، لا ينبغى أن يناله من عبده أقل من الشكر، فشكر المنعم دليل على ثبات الإيمان، ثباتا تقر معه فى القلب كل عوامل الاطمئنان، فعندما تطمئن النفس إلى أن قدرها بيد الديان، تنصرف إليه، ولا تعتمد إلا عليه، تهون أمامها الصعاب، ولا تذل عندئذ لأعتى الرقاب، لأنها بالاطمئنان تشعر أنها بالديان أكبر من قدرات كل بنى الإنسان، فهل اطمأن الإنسان وحاول بعد هذا شكر الديان؟ كلا ! وإن حدث الشكر فهو من أقل القليل، وإن حدث الشكر من الكثيرين فإنه لا يكون بالحجم الواحد وإنما يكون قليلا قليلا. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

العبد لا يشكر عندما يفتقر ويظن الثروة هى المال وحده من دون السمع والأبصار والأفئدة، والعبد يسخط عندما يفقد عينا أو قدما أو ذراعا، وينسى أن الله

(١) سيد سابق : العقائد الإسلامية، القاهرة، الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٢ م، ص ٧٨ .

أبقى عليه نعمة العين الأخرى أو القدم الأخرى أو الذراع الأخرى، والعبد يجحد عندما يفقد كل السمع أو البصر وينسى الحياة ذاتها، وما يتمتع به الإنسان من جراء وجود باقى الأعضاء، وينسى أن من يؤخذ منه شيء يعوضه الله لا محالة فى شيء آخر.

ولنسأل أنفسنا، حتى نشكر الله مطمئنين، أفاقد البصر أم حاد البصر الذى لم يقع بصره على كلمة واحدة من كتاب الله، ولم يترك سوقا تغشاه النساء إلا وغشاه لإمتاع عينيه بما لا حق له فيه، ولم يسمع عن دار لهو إلا وخف إليها، وما إلى ذلك من أمور تعف الأقلام عنها، وقس على ذلك من يغشى بقدميه أماكن المنكرات فى أى مكان، ولا يرى غضاضة فى أن يسمع الأذان ولا يستجيب لهدى الرحمن ركوعا وسجودا يطهرانه من كل الأدران، أفهذا أفضل أمَّن لا يتمتع بقدمين ولكنه يُغبر جبهته بالسجود شكرًا لله على نعمه الأخرى[1].

إن شكر الله واجب حتمى على كل موحد: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٦]. ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٥]. تلك هى الحقائق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. أما الابتلاء، فهو يظهر معدن الإنسان ومدى استحقاقه لنعم الديان ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

٢- عدم الركون إلى متع الحياة الدنيا:

عندما يستقر التوحيد فى الموحدين، فإنهم بهدى رب العالمين، يجدون أنفسهم، أقرب إلى نعيم الآخرة منهم إلى نعيم الدنيا، فشتان بين النعيمين: إن نعيم الدنيا زائل، بينما نعيم الآخرة مقيم، ونعيم الدنيا قد يداخله الحرام، أما نعيم الآخرة فهو كنعيم أبدى مقيم، رزق من عند الله، وهل يرزق الحق إلا حقا وحلالا؟ ونعيم الدنيا

---

(١) محمد شتا أبو سعد : قل هو الله أحد، الرياض، سلسلة مستقبل التشريع الإسلامى، ١٤١٢ هـ، ص١٦ .

يغلب عليه الطابع الحسى المحدود، فى حين أن نعيم الآخرة يتحقق فيه الجانب الحسى المطلق من خلال المتعة المعنوية والروحية والصفاء اللانهائى الذى يكون فيه الناس كالملائكة، ونعيم الدنيا منوط بالكد، ونعيم الآخرة هو ثمرة الإخلاص فى الدنيا ويأتى الإنسان بمجرد أن يخطر على باله، كذلك فإن نعيم الدنيا نعيم حطام بلا رضوان أما نعيم الآخرة فهو نعيم الحقيقة، فى دار الحيوان الأبدى، ونعيم الدنيا كحطام قد يورث العذاب فى الآخرة وليس هذا شأن نعيم الآخرة.

والعاقل يستشف ما تقدم وأكثر منه من وصف الله تعالى لمتع الدنيا بقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

لذا فإن الموحد لا يركن إلى متاع الغرور، بل يطمع فى وعد الله، ولا يغتر بمتع هذه الحياة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

ليس يكفى الموحد إذن أن يقول: آمنت، ثم ينصرف بكليته إلى متع الحياة الدنيا، تفتنه حتى يصير موحدا بالاسم لا بالقلب والفؤاد، مسلما بالشكل لا بالجوهر، مؤمنا بالكلمة لا بالتقوى والعمل، وإنما يجب على صاحب عقيدة التوحيد أن يسمو إلى مستواها، عملا وإخلاصا، طاعة وامتثالا، بحثا عن الحق ونأيًا عن الباطل، صدقًا لا كذبًا ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

إن الدين هو السلاح الوحيد فى يد الموحد، به يشق دروب الصعاب، ويمهد به جبال المشكلات، ويرتفع به فوق مستوى المحن، إنه عاصمه من الانزلاق إلى

هاوية الضلال، ومانعه من الانحراف فى سلك أهل المنكرات، فالحياة ليست بطونا تملأ، ولا ملذات تغتنم، ولا سيئات تجترح، ولا أموالا تنهب، ولا حقوقا تغتصب، ولا رياء تطول به قصار الرقاب، ولا نقاقًا تبتز به الأموال، ولا ترفا يشيع معه الفسق، ولا غيبوبة سكر أو تخدير يزيد معه الإثم، إنما الحياة عقيدة تهيمن على كيان الإنسان، فتعصمه من الخطايا والآثام، مهما كابد فى سبيل ذلك وواجهته أعاصير الباطل وأنواء الحرام، وهى عقيدة تخلق رجالا عابدين شاكرين ومؤمنين موحدين، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧]. وكمن يستجيبون لتحذير الله تعالى فى قوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وكمن لا يطغون مع الثروة لأنهم يعلمون حقيقة قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾ [العلق: ٦-٨]. وكمن يثقون أن زوال الثروة بقدر إنما هو لحكمة لا يعلمها إلا الله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

٣- التوكل على الله وابتغاء رحمته كدليل قاطع على إخلاص التوحيد :

التوحيد يجتث الخبائث من النفوس؛ فتصلح، فإن صلحت أخلصت، فإن أخلصت توكلت على الله وحده ولم تبتغ رحمة أحد سواه، لأن صلتها بالله تكون قد قامت على الحقيقة، التى يدركها كل إنسان بفطرته ناهيك عن عقله، المهدى بأنوار الرسالة المحمدية، وهذه الصلة تحرك فى الإنسان حنينه إلى خالقه ومربيه؛ فلا يفزع عند الشدائد إلا إليه، ولا يلتمس مخرجا من المحن إلا منه أما من استكبر فله عذاب السعير ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠].

وفزع الإنسان إلى الديان هو فزع إلى القريب المجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهو فزع إلى من يقى الإنسان من عذاب يوم الفزع الأكبر، إنه فزع إلى القادر على كشف الضر وحده، لذا يجب أن يتسم بالاستمرار لا الوقتية، وباليقين الثابت لا بالعرضية، حتى لا يكون الإنسان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]. وهو فزع إخلاص أساسه شكر النعمة، وجوهره الاعتراف بظلم النفس، وحقيقته التوجه إلى الله ليبعده عن القوم الظالمين، والمثال الذى يبين هذا الأساس هو دعاء إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وأما الجوهر المشار إليه فيمكن استظهاره من دعاء آدم وحواء فى قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وللإيمان ثمرات عظيمة فى: الإخلاص، والتوكل وأمن الخوف والسكينة، والفرح برحمة الله والرضا والالتزام، وهذه الأمور سيأتى تفصيلها فى الفصل الثانى بحوله تعالى .